

إِقتِرَانَاتُ اللُّغَةِ وَقُرْآنُهَا

بقلم محمد المهدي المهري

إن القول « بأنَّ اللُّغة أداة وليست غاية » ، هو قول خطير . إذ يحمل من الخطأ والفساد ما حملته الأمة العربية من أوزار التشبُّث والتخلف . فاللغة هي أول مقصد يطلبه المتعلِّم ، وأوكد غاية ينطلق منها العالم ليصل إليها وقد ازدانت بثراء التصوُّر ، وأخصبت بمفعول الحُدى العلمي . وإذا كانت اللغة غاية ، فالعلم هو لغة ، والحياة علم ، والإرادة حياة . وليس من علاقة بين الإنسان ونفسه : (الخواطر ، المشاعر ، التذكُّر ، الضمير ... إلخ) ، أو بين الإنسان والإنسان : (مؤسَّسات التواصل ، وتشمل كل المنشآت الإجتماعية) ، ولا بين الإنسان والعالم ، : (المعارف والفنون والطبيعة ...) إلا وترتكز كلها على أساس لغويّ متين .

واللغة في تعيين الأشياء تحوُّلات تخضع في صيرورتها إلى أربع دلالات متفاوتة الأهمية :

– **الدلالة الأولى :** تحصل عند الإشارة « باللفظ » إلى الشيء المعنى بتسميته وتعقُّل صورته الصوتية المسموعة .

– **الدلالة الثانية :** تحصل بتعيين « المفهوم » ، وذلك بإدراج المشار إليه في صيغة عامّة كلية ينتفي بها التعيين الإشاري .

– **الدلالة الثالثة :** لا تهتمّ إلا بوظيفة المفهوم لتحوِّله إلى « فكرة » ، فتسمي الخطّ الزمني للوظيفة وتلغي من الدلالة – مع إلغاء الصيغة الكلية – كلَّ تعيين .

- الدلالة الرابعة : فهي تحصل عند إجراء عملية تضيق المسار الزمني للوظيفة بطريقة ذهنية صرفة ، لتتوقع بذلك ، الإنجاز الفعلي كما يمكن أن يحدث في الواقع تماما .

ولأعطي مثالا لذلك : فإن لفظة « قلم » عند التلفظ بها ، : فإما أن تدلّ على صورة المشار إليه من خلال تعيين اسمه فقط . أو أن تدل على الخصائص التي يكون بها القلم قلما أي المقومة لماهيته بحيث تشمل كل الأقلام . أو أن تدلّ على فعله من حيث هو يكتب بصفة معينة ويستغرق أثناء ذلك زمنا معينا ، وفي النهاية تدلنا لفظة « قلم » على كتابته من حيث هي فعل منجز ، يحمل خصائصه وقرائنه الزمنيّة معه على نحو مخصوص .

ارتأيت أن أتوخى في هذه الدراسة طريقة للكشف عن أسرار اللغة ، وذلك بدراسة علاقاتها ، تحت عنوان « اقترانات اللغة » متوخيا أسلوبا وصفيا ، ثم سائبن إلى أي مدى تساهم اللغة في تشكيل الماهية الإنسانية والهوية الذاتية ، وذلك تحت عنوان « القرناء اللغويون »

ARCHIVE

http://Archivebeta.Sakhril.com

1) اقترانات اللغة :

يعرف ابن خلدون اللغة بأنها : ملكة في اللسان .. والملكة لا تحصل إلا بالتعود على أفعال بعينها . لأن الفعل يقع أولا ، وتعود منه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالا ، ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة ، أي صفة راسخة في اللسان ، للعبارة عن المعاني وجودتها ... (المقدمة ، ف 46 ص 1047 ط . لبنان) فإذا ما ثبت أن اللغة صناعة يتم اكتسابها بالتعود ، وإذا ما علمنا أنها تمنح للإنسان شخصية فريدة ، تأكد لنا أنها تتفاعل مع طبيعة الشخص بفضل اقتراناتها العديدة ، والاقتران يفيد التلازم والاتحاد بين شيئين مختلفين ، كما يفيد اشتراك أكثر من شيء في فعل واحد .

1 - اقتران يخصص التراكيب :

هذا الاقتران يتعلّق بالناحية الشكلية للغة ، وذلك في أن تكون الكلمة أدعى

الكلمة ، والجملة أدعى للجملة ، والأسلوب أدعى لمثله ، والمسألة أدعى للمسألة ،
والسؤال أدعى للجواب ، والجواب أدعى للسؤال ... إلخ .

وهذا ما يؤكده التعامل اليومي مع اللغة ، فيتشكل الكلام في بنية تركيبية
تستقل بذاتها في ذهن الشخص ، أي تكون تابعة لنظام تركيبى جرت عادة الفكر
في إirاده دون تأكيد معتبر على المعاني . والملكة التي تحصل للفرد بالنظر إلى
هذا النظام ، إنما هي ملكة في التراكيب ، أي في اقتران الكلمة بالكلمة ، والجملة
بالجملة والأسلوب بالأسلوب ... إلخ . فقد يكون الشخص بارعا في الكلام بحيث
تطاوله التركيبية اللغوية ويجري لسانه بها في يسرة وسهولة ، إلا أن تصورات
تبقى ضعيفة ، فقد تسمع منه أشياء صعبة الإدراك والفهم ، فتظن أنه فطنا ذكيا ،
عبقريا .. غير أنك إذا ما فحصت عن حقيقته وجدت حاله كالة التسجيل سواء
بسواء .

ينساق خطابه سلساً نظرا لترايط جمل متجانسة ، تتبادر إلى ذهنه متتابعة ،
بحكم تلازمها في خياله أو جريان العادة باقترانها . وهذا مثال للغة الميتة التي
نستعملها كأداة ، أما اللغة الحية فهي تلك التي ترتبط بالمخزون النفسي للفرد ،
مما من شأنه أن يفدّي تلك اللغة ويخصبها ويثريها . وذلك بأن تُدرج الألفاظ
والعبارات تحت معان ثابتة ، اقتنصت من الدين (كالألفاظ التي تقيّد المجاملة
والتأدب ... إلخ) ، أو من العادة والعرف (كالعبارات المخصصة للمناسبات) ، أو
من الأحوال المميزة في الثقافة الأصلية للبلاد (كالحكم والأمثال ، أو العبر ... إلخ)
أو في الحضارة الضاربة بجذورها في الماضي ، وذلك باختيار الأسماء
والمصطلحات ، وتطويرها إلى ما استجدّ عندنا من أشياء علمية وتقنية .

فإن اغتراف المتكلم من هذه المنابع يزيد العبارة تماسكا ، واللفظ قوة وإيحاء ،
حتى تتحرك الكلمات داخل النفس كما تتحرك الصور الواقعية نفسها .

ب - اقتران يخصّ المعاني :

وأما النوع الثاني من الاقتران فهو يخصّ المعاني . إذ أن الغاية من اللغة

أن تكون ترجمان عما في الضمائر ، ومكانتها تنزل بين المعنى والفهم ، فكلماً اقتربت هذه الوسطة من المعاني بطريق الاقتران ، كلما كان ضمان الفهم أوكد ، حتى يصبح الطريق بين المعنى والفهم كأنه خال من اللغة » بحيث تتبادر المعاني إلى الذهن من تلك الألفاظ عند استعمالها شأن البديهي والجبلي فيزول الحجاب بالجملة بين المعاني والفهم » (الباب 6 من المقدمة) .

فإذا كان الاتصال بين الأفراد لا بطريق الخطاب والعبارة وإنما بالكتابة ، كان ذلك بمثابة وضع لغة للغة : لأن الكتابة تدل على الكلام والكلام يدل على المعاني والمعاني أو التصورات تدل على ما يناسبها في الواقع فتتعدد الواسطات وتتضاعف الحجب . إلا أنه كلما كان الوقت في الفهم بين الكتابة والواقع المناسب أقصى ، كلما كانت ملكة الشخص في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة ، والسبب في ذلك : أنه كلما تكرر الشيء في الذهن أكثر كلما زالت المعاناة في اقتناصه ، وإذا ما انتفت المعاناة بالمرّة أضحي حاضرنا في الذهن كأنه فطري أو بديهي ، فإذا ما أضيفت إلى هذه الملكة ، ملكة أخرى في التراكيب استوفى الإنسان الإفادة من اللغة .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ومن مميزات اللغة العربية أنها تحتفظ « بالأحوال » حتى في المقروء ، وهذا سبب من أسباب تفنن العربي في الشعر، والسجع ، والنثر ، لأن تقلب الأحوال في اللغة إذا ما وافقته الموسيقى الصوتية في إيقاع الكلمات المتناسبة ، وأنساق الألفاظ وحضور القافية وتسلسل الصور في الخيال ، أحدث كل ذلك متعة للنفس ، وهياً لتلقي المعاني دون الإهتمام بصدقها أو ببطلتها: فهي أشبه في الذهن بشرط مسرحي تتخلله الموسيقى ويقيم من خلال قدرته على استمالة النفوس لا بالحكم على أحداثه : فهي واقعية أم لا ؟ ، « وهذه الصناعة ... دلالة زائدة على دلالة اللفظ من المفرد والمركب ، وإنما هيأت وأحوال للواقع جعلت للدلالة عليها أحوال وهيأت في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه » (المقدمة - ابن خلدون الباب 6)
فحالات الألفاظ ستؤثر في المعنى بتعيينها لمقام المفهوم في السياق حتى تتنوع

الدلالة بتغيير مكان اللفظ أو توكيده ، أو إهماله حسب ما يقتضيه الحال لإبراز هذا المعنى يقول ابن خلدون : « ألا ترى أن قولهم (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاني زيد) من قبيل أن المتقدم منها هو الأهم عند المتكلم (...) وكذلك التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة ، وكذا تأكيد الاسناد على الجملة ، كقولهم : (زيد قائم) ، و (إن زيدا قائما) ، و (إن زيدا لقائم) ، مغايرة كلها في الدلالة ، وإن استوت من طريق الإعراب ، فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد بأن ، يفيد المترددة ، والثالث يفيد المنكرة ، فهي مختلفة ، وكذلك تقول (جاءني الرجل) ثم تقول مكانه بعينه (جاءني رجل) ، إذا قصدت بذلك التنكير ، تعظيمه ، وأنه لا يعادله أحد من الرجال » (المقدمة ، ابن خلدون)

ج- اقتران يخص الانفعالات :

أما الاقتران الأخير فهو نسبة بين اللغة والانفعالات ، لأن الكلمة لا تستوفي الغاية من دلالتها إلا إذا سبقها الشيء المدلول عليه في الذهن كما هو في الواقع بكل قائمه ، فمثلا : لا يمكن أن يكون معنى لفظة « نثيب » مطابق للواقع مطابقة ملائمة تماما ، إلا إذا سبق مدلولها إلى ذهني في مختلف أحواله ، فارتبط الاسم مع الصورة في الخيال ، واستحكم الاقتران ، فإذا كان في كل مرة يستحضر فيها الذهن الصورة يستحضر إسمها أو العكس ، حتى يفقد المسمى كالإسم والإسم كالمسمى ، بل إن خصائص المسمى تنتقل إلى الإسم فيحدث هذا الأخير في النفس ما يحدثه الأول فيها ، حتى يرتعش الإنسان عند ذكر « هول » يرعبه ، ويخشى ذكر « الموت » كأنه سيدكه قريبا ويسيل لعابه بمجرد التفوه بأسماء « الفاكهة » ، ويبكي عند التلطف باسم والده أو أمه اللذان وافاهما الأجل ، ثم إن مجرد كلمة تقال للدعابة كافية لإضحاك أو إثارة غضبه ... إلخ .

فإذا كان الاقتران بحسب التراكيب يؤثر في العقل ، والاقتران بالإضافة إلى المعاني يؤثر في الفكر ، فإن اقتران اللغة بالانفعالات يؤثر - لا محالة - في سلوك

الأشخاص وفي أحوالهم النفسية . حتى تكفي مجرد الكلمات ، لأن تشفى المريض من مرضه أو أن تساهم في قتل الفتى الجلد ، وقد تشغل لفظة سبّ وشتم صراعا مريرا . فلفظة - إذن - قدرة كبيرة على الإيحاء وعلى تجسيم الوهم وعلى تصوير الأحداث والتحكم في المنقول من الأخبار بتهويله أو تبسيطه أو ابتذاله . والذي يمسك بناصرية اللغة من الشعوب أو من الأفراد يتأفل للسيادة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وتكون له الأولوية في التأثير .

(2) القرناء اللغويون :

« القرنين » يعنى : العشير أو الصاحب أو الملازم . وسمي بهذا اللفظ كناية على القرب والتأثير . وقد اخترت هذا اللفظ لأعبر به عن ثنائية الكائن البشري ، فهو جسد ولغة ، واللغة تقوم في الجسد مقام الروح ، لذلك فإن وضعيتها تتراوح بين التفاعل والإستقلالية ، ولغة داخل الجسد صيرورة تنقلها من حالة إلى حالة أخرى مختلفة من حيث المعنى والقيمة . وبهذا الصدد سأتكلم عن أربع قراء يتناوبون في الظهور والضمور وإن كان ليس بين هؤلاء إختلاف في النوع بل في درجة الإكتمال ، إلا أن كل واحد منهم يتضمن الآخر ، ويمثل المتأخر شرط إمكان المتقدم (إذ يمثل غاية له) ، والمتقدم شرط تحقق المتأخر .

1 - القرن اللغوي :

إنه كائن لغوي ، ليس له قوام جسماني ، وإنما هيكله اللفظ وجسده المعنى ، وروحه الانتظام وفعله التعبير .

فبالإضافة إلى المؤهلات الفيزيولوجية التي تجعل اللغة ممكنة يوجد دافع سياسي لذلك ، : فهي تقوم مقام الحكم بين الأنا والآخر وتفصل في المنازعات . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من تعلم لغة قوم أمن شرهم » .

فالبداية تكون مع الرغبة (وترجمها إرادة الإشباع ، أو النزوع نحو المطلوب لتوفير حاجة للذات ، استجابة للغريزة) . غير أن هذه الرغبة عمياء ، لا هم لها إلا الإشباع ، ليحصل تحديد مكان موضوع الرغبة لابدأ من الملاحظة ، فهي الموجّه

الأول نحو المطلوب ، إلا أن الملاحظة تعيّن الموضع والمكان لا الشيء نفسه ، لذلك لا بدّ من انطباع الصورة في الذهن بطريق الحواس ، وهذا الانطباع عبارة عن أثر في النفس تنكشف لنا به خاصيات المطلوب ، - فهي إذن الموجّه الثاني - . غير أن الصورة المنطبعة تخصّ الذات فقط ، فهي تحدّد الشيء المطلوب أو تكشفه للإرادة (الرغبة) حتّى تتوجّه نحوه . إلا أنّ تزامم واتّجاه إرادات مختلفة نحو مطلب واحد يستوجب حكماً يمنع النزاع بين الأفراد ، ولا يحدث ذلك إلا بطريق التفاهم ، والقاضي هنا ، أو الشكل الأرقى للتفاهم هو اللّغة ، إذن فهي الموجّه الثالث للإرادة .

وباعتبار أن لّغة مثل هذه الخاصية فستصبح موضوع رغبة أيضا وسيسعى الإنسان لاكتسابها وتحصيلها بكلّ قوّة ، إذ تمثل شرطا من شروط تأمين الذات وتحقّق سلامتها .

واللّغة التي يتعلّمها الطفل هي غريبة عن تركيبته الفيزيولوجية ، فهي تحمل إذن في طياتها « الآخر » ، والذي سيّوحي إلى الطفل بواسطة اللّغة أنه إذا أراد أن يعيش بسلام لا بدّ له أن يفعل هذا ، ولا يفعل ذلك بأن يطيع الأوامر والنصائح ويتجنّب الموانع والنواهي ولاّ تعرض للألم . (ولهذا فوجود الآخر في الوعي يسبق وجود الأنسا ، ممّا يفسر سرّ تطوّر الوعي الإنساني والحضارة برمتها) .

مثلا : لو أراد الطفل أن يشرع في القيام بعمل ما ، بدافع الرغبة ، فيأتيه الأمر - من أمّه أو أبيه - أن لا يفعله ، فإن هو عصى الأمر ، أدب بواسطة الضرب ، أو الحرمان أو التثريب والتقريع أو العتاب ... إلخ . وعندما تتكرّر هذه الحادثة ، يقرن الأمر بأنواع الصيغ : ذات صبغة زاجرة أو رادعة أو توضيحية أو تفسيرية ... إلخ . وكل ذلك يكون مصحوبا بحالات نفسية مختلفة ومتنوعة . ولعلّ أشدّ الحالات ولوجا إلى نفسية الطفل وتأثيرا فيه هي تلك المصبوغة بالقداسة والديّن ، لأنّ الخضوع للخطاب الديني يكون مشتركا بين الجميع ، وسلطته تتجاوز الأبوين والطفل على حدّ سواء .

فإذا ما انتفتت عمليات التأديب في المستقبل ، باعتبار أن الأمر وحده أصبح كاف لزجر الطفل ، فإن هذا الأخير سيتقبل الأمر وكأنه التأديب نفسه ، وعندئذ سيقع تمثيل الأوامر كجزء من الكيان . وفي هذه المرحلة يكتمل الضمير الذي سيصبح ممثلاً للغة العليا ، لغة القانون التشريعي للسلوك . وعندئذ يكون للإنسان وازعماً ورادعاً من نفسه .

والضمير يمثل المكون الأساسي لشخصية الطفل . لأن التربية لا تشذ عن كونها قوالب وصيغ لغوية من الأوامر والنواهي والنصائح المستندة إلى الترغيب والترهيب ، تلقن إلى الطفل بطرق مختلفة وبحالات نفسية متنوعة ، فيتقبلها الطفل نظراً لهشاشته النفسية ، كما هي قوتها وتعالها . ولا يكبر الطفل إلا بعد أن يقع تأطير سلوكه ضمن مثل وقواعد أخلاقية عديدة . حتى تنزل العبارة منه - في النهاية - بمنزلة العضو من الجسد ، وتشكّل نظاماً كاملاً في جهازه النفسي. فالضمير - إذن - هو جوهر الشخصية ، ونواة اللغة ، والمشرع الذاتي للسلوك الاجتماعي وحري به أن يسمى بالقانون الذاتي .

- غير أن هذا القانون << اللغوي >> مستمد من الخارج ودخل على الذات ، بالإضافة إلى كونه مفروضاً عليها بمقتضى التعايش السلمي مع الآخرين . لذلك فبمجرد أن تقوى إرادة الطفل وتزداد رغبته جموحاً حتى يحدث في الكيان (أو في نفس الطفل) تصادم بين القانون والرداءة .

وقبل أن يصطدم الطفل بالواقع أو بالموانع الموضوعية فإنه سيكبت من الداخل بالقانون (أو الضمير) ، الذي هو من أجل مصلحة الكيان ككل ، لأنه يوفر شروط التواجد في أمان . غير أن الإرادة عمياء ولا ترتباطها المباشر بالفرصة فهي ستبغى الإشباع بلا توان . فيظهر بالتالي القلق والاضطراب على هذا الطفل الذي أصبح مرهقاً وتلوح عليه بوادر تأزم نفسي وانشطار الذات . فيتولد عن هذا الانشقاق لغة تابعة للإرادة . وظيفتها تمثيل الرغبة والتحليل على القانون الذاتي ، الذي سيبيد قوة سيطرة وتحكم مدعوماً بقانون أخلاقي باطني ومتفق عليه في

الخارج .

ونظرا إلى كون الإرادة تفتقر إلى المنطق الاجتماعي فإنها ستراجع وتتوقع داخل الذات لتجد فسحة لها في الأحلام والخيال والفن . وبهذه الطريقة تتغذى لغة الإرادة شيئا فشيئا وتتأهل لمناقشة لغة القانون مما يفرز حوارا باطنيا ذاتيا بين الانا (الإرادة) والانا (القانون) .

ومن ثم يصبح للغة كيان ينظر إليه من زاويتين : الأولى ، تمثل الدليل والمرشد ، وقد كانت في السابق لغة سلطوية متمثلة ولكن نظرا إلى هذا الحوار الداخلي انقلبت من أمر مطلق إلى أمر مشروط . أما الثانية : فهي بمنزلة الإرادة بعد أن ثقفت ووقع صقلها حتى تنسجم مع ما يقتضيه الواقع ، لذلك فهي مهياة لتجسد في السلوك الاجتماعي ، بعد أن كانت حريصة على تلبية حاجيات الرغبة مبالغة إلى التحايل وعند هذه الدرجة يدرك الإنسان مرحلة الوعي بالذات ، وهي عبارة عن ثمرة اكتمال القرن اللغوي الذي يفيد في النهاية بناء لغويا مريدا وله سلطة في تسيير الجسد والتحكم فيه طبقا لمطلق يجمع بين المصلحة الخاصة (للجسد) والمصلحة العامة (للتعايش السلمي في المجتمع) .

ب - القرن العقلي :

لما كان القرن اللغوي ذو كيان متكامل ومستقل في بنيته عن الجسد ، ولما كان يمثل صاحب الرأي والقرار والجانب الواعي في الإنسان ، فإنه سيتضمن منذ البداية غائية تصدر مباشرة عن الدور الدلالي للغة ، هذه الغائية تأتي نتيجة لإفراز اللغة الشكلية للمعنى ، الذي هو بالنسبة للكلمة جوهرها وروحها وبالنسبة للقرين عقله . لذلك فإن القرن اللغوي الكامل البنية ينتج ضرورة عقلا كاملا نو ماهية لغوية ، ونو نشاط " فهمي " ، بمعنى أن الإنسان في هذه المرحلة سيتمكن من اللغة ، وسيكون له سلطة في استخدامها كتلك التي له على أعضائه ، فالمعنى بالإضافة إلى اللغة كالعضو بالإضافة إلى الجسد ، والفهم بالإضافة إلى المعنى كالفعل بالإضافة إلى العضو . لذلك ما يهم الإنسان عند أداء أفعاله هو إنجاز

الفعل ، وإن كان الفعل في الحقيقة لا ينجز إلا بأداة ، غير أن هذه الأداة إذا كانت حاضرة بالفعل فإنها تغيب من الاهتمام . لذلك يظن كثير من الناس أن بإمكانهم تعقل الأشياء أو الموضوعات بدون لغة ، وهذا خطأ ، لأن علاقتنا بالأشياء تمرّ بتوسط الكلمات ، كشرط أساسي في تعقلها وفهمها ، ثم بعد ذلك تغيب الكلمة — بالإضافة إلى القصد ليبقى المفهوم وحده ، إلا أنها في الواقع تبقى كشرط أساسي في وجوده . وينتج الفهم عندما نتمكن من استخلاص العلاقات في اللغة . وبالتالي ينبجس القرن العقلي الذي يكتمل فيه الفهم كثمرة ونتيجة لاكتمال القرن اللغوي فيتحوّل الحوار اللغوي الداخلي إلى فهم . كيف يحدث ذلك ؟ .

مثلا : إن الحديث الواقع بين شخصين يفترض من يتكلم ومن يستمع . فهما يتناوبان الكلام والاستماع . فإذا كان أحدهما هو الفاعل للكلام ، فمهمته الآخر تتمثل في تقبل الخطاب . غير أن ما يقع في النفس عند اكتمال القرن اللغوي يجمع الحالتين في كيان واحد ، وهو أن كل شخص سيتمثل الدورين معا . فينشطر القرن اللغوي — نفسه — إلى قسمين : الأول يقوم مقام المتحدث المخاطب ، والقسم الثاني يقوم مقام المستمع المتفهم . بحيث يتجسد هذا الأخير في المرجعية اللغوية أو القاموس اللغوي الذي يقوم بمهمة إرجاع الخطاب إلى أصله الدلالي ، وذلك بتفهم إنطلاقا من اقتراناته المختلفة ، كاقتران الكلمة بالكلمة أو الكلمة بالمعنى أو المعنى بالصورة المحسوسة ... إلخ .

فإذا كان هذا الشطر الثاني من القرن اللغوي — والذي لا همّ له في البداية إلا تفهم الخطاب وإرجاع الكلام إلى معناه — نشيطا في عمله وحصل ملكة فيه ، بحيث تنقلّ الفترة الزمنية المخصصة للإضطلاع بمهامه شيئا فشيئا ، حتى يفقد الفاصل الزمني بين الخطاب والفهم كالممتقي أو يكاد . بل يغلب الفهم على اللغة ويصبح هو الأول في القصد .

ولما يبلغ القرن هذه المرحلة ، يصير مكتمل العقل . ويسبب ذلك فإن التفاعل اللغوي داخل الذات ، أضحت له خصوصية وثراء أدعى إلى الدهشة والغرابة

فالقرين اللغوي وإن كان قد انقسم في مرحلة أولى إلى مخاطب ومستمع ، فإن العلاقة بين القسمين في مرحلة متقدمة لا تكون بين فاعل ومفعول ، وإنما بين فاعل ومقوم للفعل ، أي بين مخاطب ومعدّل في هذا الخطاب ، تحصل الحركتان داخل النفس (لاستحكام الاقتران) في اللّزمان ، فيقع الفهم ويطفو إلى السطح وهو معدّل بذاته . وعند هذه المرحلة بالذات يكتمل الجانب المنطقي في الإنسان ، وبالتالي تتحوّل اللّغة إلى مجموعة من المفاهيم الخالصة والكلية ، ويتهيأ الإنسان بعد ذلك إلى استيعاب العلوم ، لا بطريق الحفظ أو بواسطة النقل والتقليد ، وإنما عن وعي وفهم وأطلاع عميق على الخصوصيات والانعكاسات .

– وعند اكتمال القرين العقلي نجد أنفسنا أمام قرين جديد هو القرين الفكري ، الذي تمتدّ بذرته إلى القرين اللّغوي وتنزّرع نواته في القرين العقلي .

ج - القرين الفكري :

كما أنّ القرين العقلي بالنسبة للقرين السابق عليه ، ثمرة ونتاج ، وكما أنّ القرين اللّغوي ثمرة ونتاج حركية اللّغوة داخل النفس ، فإنّ القرين الفكري هو ثمرة اكتمال القرين العقلي وزيديته .

وإذا كان القرين اللّغوي يتميّز باستعماله للّغة في التعيين الإشعاري وذلك بمعرفة الأشياء بأسمائها ، والقرين العقلي يتميّز باستعماله للّغة في التعيين الكلي ، وذلك بإدراج الكثير من المسميات ضمن مفهوم واحد . فإنّ مهمّة القرين الفكري تنصبّ أساساً على القيام بمهمّة التعيين الوظيفي ، وذلك بالاهتمام بمسار الفعل وبالخطّ الحركي مع إعمال العناصر بالإضافة إلى القصد . والوقت الذي يستغرقه القرين اللّغوي في تعيين الأشياء ، يتقلّص كثيراً في حضور القرين العقلي ، ويكاد ينتفي في حضور القرين الفكري .

مثلاً : لا يقدر صاحب القرين اللّغوي على استيعاب مسألة من المسائل إلا بمطالعة صفحات كثيرة في الموضوع ، أمّا صاحب القرين العقلي فهو يلمّ بنفس الموضوع عند قراءة صفحة أو صفحتين ، أما ذو القرين الفكري فكيفيه قراءة فقرة واحدة للإلمام به وتحصيله . ثم إن عملية استحضار نفس الموضوع في الذهن قد

تعجز القرن الأول ، في حين إشارة واحدة قد تكون كافية لصاحب القرن الفكري حتى تمثل كل عناصر الموضوع في ذهنه كأنما هي جزء من ذاته .

لهذه الأسباب ولقوة انتباه المفكر ولقدرته الفائقة على التعرف على الأغراض والنوايا المبيتة ، فإنه يعسر استعباده أو استخدامه كأداة . لأن استغفاله واستبلاجه غير ممكن . إذ هو لا يتعرف على المعاني من خلال الكلمات أو المفاهيم فقط ، بل من خلال اقترانها بالأحوال الخاصة بها ، أو الظروف التي قيلت فيها ، ومن خلال المقاصد والأغراض ، ومن خلال مستويات الاستعمال .. لذلك فإن مجريات الأحداث التي يستوعبها المفكر ، إنما تنطبع في ذهنه كشبكة متداخلة الخطوط ، ويحكم وحدة الوظيفة والتوزع الغائي على هذه الشبكة ، يبدأ اهتمام هذا المفكر في تغطيتها شيئاً فشيئاً ، حتى يشعر في النهاية أنه في ارتباط وثيق وعضوي تتأكد بتج مع كل ما حدث أو ما عساه أن يحدث في العالم .

ويؤدي هذا ، بالمفكر - تدريجياً - إلى تضيق زمن انطباع الوظيفة في الذهن ، وذلك بحكم ضغط الغاية عليه ، فيدخل بطريقة تلقائية الجزء في الكل ، والهام في الأهم ، والحسن في الأجسن .. إلخ . ويقرب الممكن من الواجب والسبب من المسبب ... إلخ . فتتقلص مدة التنبؤ بصورة الإيجاز والإكتمال ، ويقوى عنده الإدراك ، وترهف الحواس في تقبل المعلومات . ثم في النهاية وعند اكتمال هذا القرن لا يبقى بين المفكر والعالم من حاجز أو وسائط معرفية ، إلا خطوط وظائفية منسوجة في دماغه كلوحة كهربائية ، وفي هذه الحالة يقترب من الوجود في خلقه المباشر كأقرب ما يكون .

ولما يبلغ الإنسان هذه المرحلة ، تستعد الذات لاستقبال قرين آخر ، هو القرن الحدسي ، الذي ينزرع كبذرة في رحم القرن العقلي ، ثم كنواة داخل القرن الفكري قبل أن يتجلى كثمرة لهذا القرن ذاته .

د - القرن الحدسي :

إن المعرفة ليست غاية في حد ذاتها ، وإنما هي وسيلة تلمس بها الوصول إلى

الإدراك المباشر أي الدخول مع الطبيعة والوجود في علاقة إندماج . فلو افترضنا أن للإنسان علاقة مباشرة بالوجود منذ بداية السيرورة المعرفية ، فستكون المعرفة عندئذ باطلة أو هي سعي لتحصيل ما هو حاصل ، أي هي لا تضيف شيئاً إلى ما هو حاضر في ذهننا بصفة مباشرة .

الحيوان في علاقة مباشرة بالوجود ولكن هو في حالة غير واعية أي هو لا يقدّر (ويقيّم) قيمة هذه العلاقة . والإنسان ينطلق من هذه الدرجة بالذات ويعود إليها وقد اكتسب الوعي ، فيصير إلى علاقة واعية ومباشرة بالوجود .

فالألفة ، أو العقل ، أو الفكر ، ماهي إلا فواصل ذات أبعاد زمنية متناقصة تحول بيننا وبين الوجود المباشر . لكنها في الآن نفسه ضرورية بالنسبة لتقوية الوعي من ناحية ولاستكمال الطريق من ناحية أخرى . والدافع الرئيسي المستحث على بلوغ الغاية ، هو دافع الإرادة المرتبطة بالرغبة والتي تكون تحت وطأة حكم المنفعة والنجاعة ومصلحة الجنس البشري .

ثم إنّه من المستحيل أن تكون للإنسان علاقة مباشرة بالوجود دون التخلّص من هذه الفواصل المذكورة التي هي حجب وعلاقات وواسطات . والطريق الوحيد لذلك هو التّوغل فيها . لأنّ التّقدّم في المعرفة يمكننا من إقراغ الزمن ، وذلك بتكوين الملكات في شتّى المجالات ، وإدماج بعضها في البعض حتى ندرك القرن الحديسي .

فالذي يتبع مسارا سليما في تحصيل المعرفة ، حسب بنية لغويّة متماسكة وغير مختلطة ، وعقل متزن ومنطقي ، وفكر ثاقب وحصيف ، فإن المعرفة والحالة هذه سترتبط بإرادته حتى تتحدّ بها . فإذا ما أراد هذا الإنسان أن يعرف شيئا عرفه في الحال بلا توسّط . وعند ذلك يتقدّم القرن الحديسي كتمثيل لوحدة الذات بالنظام ، أي يدخل ونظام العالم في مسار وظيفي واحد ، طبقا لغاية واحدة .

وببلوغ هذه المرحلة يتخلّص الإنسان من ضغط الحتمية المفروضة عليه من الزمن ، ولم يعد في حاجة إلى مبدأ السببيية . فيتجلّى له العالم والحالة هذه كخلق مباشر

لا توسط ولا ضرورة فيه ، وإنما هو فعل حرّ ، لا تاريخ ولا زمن له إلا في مداركنا
فإذا كان الذي حدث عند حدود القرن الأول هو الابتعاد عن ظاهرة المحسوس
والذي وقع عند حدود القرن الثاني هو انتفاء اللّغة والذي وقع عند حدود القرن
الثالث هو انتفاء المفهوم وحضور العلاقة ، فإن الذي سيحدث في المرحلة الأخيرة
– أي مرحلة القرن الحدسي – هو انتفاء العلاقة وحضور المباشر بلا توسط –
وعندئذ يلج الوعي في اللّزمان ، ويصير تقسيم الزمن إلى أمس وحاضر وغد بلا
معنى .

ومثل تدرّج هذه العمليات في السيرة المعرفية كمثل شريط تلفزيوني : فالشريط
الذي يستغرق ساعتين من الزمن (مثلا) ، يمكن اختزاله إلى ساعة وذلك بتقوية
حركة الأحداث (أي زيادة سرعة حركة الأحداث بواسطة التقنية) ، ثم زيادة
حركة الأحداث أكثر واختزاله إلى ربع ساعة ... ثم إلى أكثر من ذلك ، إلى أن
تلتحم كل الأحداث بعضها ببعض ، فلا يبقى من الشريط إلا ومضة ضوء ، هذه
الومضة لو مطلقناها بحسب زمن يستغرق ساعتين ، لعاد الشريط كما ابتدأ أوّل
مرة .

فالذي يحدث في النفس من تحولات هو شبيه بهذا ، إلا أنها أكثر قدرة على
تقوية حركة الأحداث وتسجيلها واختزانها ، حتّى تصل بالتجربة إلى حدود
« الصفر » ، أين تجمّد الحركة (كما تجمّد في شريط التسجيل) فتتكوّن الملكة
المفرغة من الزمان ، وتصبح عند ذلك معرفة الإنسان بخصوص هذه التجربة جبلة
فيه وبديهية .

والقرن الحدسي ينطوي على ملكة واعية تختزل كل أحداث العالم التي وقع
تمثلها في شكل مبادئ ، فتقرنها وتدمجها في غائية الخلق . وعندئذ تخرج بالإنسان
إلى اللّزمان ليدرك الحرية المطلقة .

– الخاتمة :

القرن اللّغوي هو – إذن – بمثابة إنسان داخل إنسان ، بل هو الإنسان الحقيقي

الذي ينشأ داخل جسد حيٍّ ، مريد ، ملائم ومهيئ له . ولهذا الإنسان الداخلي ، قوى متفاوتة يخرج بعضها من بعض ، خلقا من بعد خلق ، كل خلق يحمل سره معه كما يحمل خصائصه ومميزاته من خصائص ومميزات اللغة التي انبعث منها . ومن غرائب الأمور ومن ألغاز الحياة ، أن اللغة تردّ على الجسد الحي من خارج ، فتجد فيه موطناً ومستقراً ، ومسكناً كأنما أعد لها من قبل .

فالطفل يتعلّم اللغة من أشخاص يحيطون به يتكلمونها . وليس تجربة واحدة تدلّ على أن الجسد يتكلّم من ذاته بعد أن كان صامتا ، أو بعد أن كان يُصدر أصواتاً حيوانية . بل إنّه يتعلّم الكلام من أجساد حية متكلمة لمدة زمنية لا تقل عن سنة كاملة . ولا يُتقن اللغة إلا بعد ثلاث أو أربع سنوات من الولادة . وكلّما تأخّر تعليمه أكثر من ولادته ، - بحيث يبقى لمدة سنوات قليلة دون أن يسمع من يكلمه أو أن يسمع ذلك نادرا - كلّما كان أكثر عجزاً عن اكتساب اللغة . ويمتنع عنه ذلك تماماً في سن متأخّر . فهل اللغة مصدر طبيعي والطبيعة لا تتكلّم ؟ أم مصدر بيولوجي تلقائي ينفرد به الإنسان ، ونحن نعلم أن الوليد لا يطق إلا بعد جهد جهيد وتلقين وتعليم متواصلين لفترة طويلة نسبياً ؟ أم هو أساساً اللغة إذن ؟ وكيف ، ومتى تكلم الإنسان ؟ وماهي الظروف التي جعلته يتكلّم دون سائر الحيوانات ؟ ؟ .

ماهو مؤكّد ، أن للإنسان جوهر لغويّ يتسامى به إلى أرقى درجات السلم الطبيعي . وأي تقصير في الاهتمام بهذا الجوهر ، وأي محاولة لتخريبه في الإنسان ، إنما يعتبر تعدّي على إنسانيته في أقدس مقدّساته .

فعلينا أن نحافظ على سلامة وأصالة بنية اللغة ونزعاها داخل كيان الطفل ، حتّى تكون منسجمة مع إرادته ، عالقة بنفسه ، موحّدة ، ومثمرة .

فاللغة هي روح العلم ، وروح الحضارة ، وعليل اللغة هو عليل الروح . وإتقان اللغة إلى حدّ الأقصى هو الشرط الأوّل والأخير للخروج من موقع الخضوع إلى عرش السيادة ، ولنا في تاريخ الأمم ما يؤكّد ذلك .

في مدلولات الحقيقة العلمية

بقلم الأستاذ : محمود البش

تمهيد :

لا يهدف هذا البحث الإحاطة بكل مفاصل المحاور الاستيمولوجية للعلوم الحديثة فذلك ما لا يطمح له بحث متواضع مثل هذا والذي هو عبارة عن بعض مقتطفات من دروس أعدت لتلاميذنا في التعليم الثانوي والفروق بين الدروس والبحوث واضحة سواء على مستوى التبسيط البيداغوجي أو حتى جوانب التوثيق والتعميق الأكاديمي .

والأمر هذا لا يسعنا إلا الاعتذار لزملائنا المختصين الذين لن يجدوا في هذا العمل الفائدة اللازمة في موضوع يتوزع على أعماق قضايا الفكر العلمي الحديث : أقصد قضية الحقيقة La Verite إذ أن التطور الفعلي للعلوم التصورية والتجريبية قد سدّد المفهوم الكلاسيكي للحقيقة ضربة قاسية اضطرتّه إلى إعادة النظر في الأسس التي يستند إليها بحيث لم تعد العلوم تتحدث عن معنى موحد ونهاييّ وشامل للحقيقة في حقل علم يبني على التقريبات المستمرة والدحضانية الملزمة والاحتمال والنسبية .

- المدلول الكلاسيكي للحقيقة العلمية :

- إن الاسترداد الاستيمولوجي Recurrence يمكننا من الوقوف على المعنى المفتوح لمفهوم الحقيقة العلمية فهو من المفاهيم التعديلية Ajuste الذي يتراوح بين الصرامة والاحتمال الذي تدخل فيه طبيعة فقه العلم السائد والمواكب للنشاط العرفاني

وعلى هذا فإن الحديث عن حقيقة أمثلية Optimale أو نهائية Finale شاملة Generale أصبح من قبيل الأقوال السفسطائية سواء تعلق الأمر بما يستمولوجيا أفلاطون أو ديكارت وصولاً إلى كانط .

أن اختيار هؤلاء يعكس طلب المفهوم الكلاسيكي للحقيقة العلمية في مصادره المعرفية المرجعية هؤلاء كانوا يعتقدون في علم شامل ونهائي ترتفع بعده الأقلام وتجف الصحف ولئن لاحظ باشلار بحق أن الرياضيات الكلاسيكية كانت القاعدة التي استندت إليها العقلانية الكلاسيكية فهو يقصد أن جعل النموذج الرياضي مفاهيمياً ومنهجياً وانغلاقاً استدلالياً مثلاً أعلى لكل العلم فليس هناك في اعتقاد أفلاطون وديكارت وكانط أوثق من النسق الرياضي لما في مفاهيمه من البدهية وقضايا . من الحدسية واستدلالاته من الصرامة المنطقية حتى أن القضايا تتسلل من البسيط إلى الأعقد على نحو قياسي كفيف بالإقناع بأصعب المسائل وأعقد البراهين ولقد كان هؤلاء يعتقدون - أن في العقل من المبادئ الفطرية والمقولات القبلية والأفكار الترسنتتالية Transcendantale ما يجعل الحقيقة سلسلة من الحسوس التي تستمر بالبدهية إلى أعقد القضايا وتنتزلها على أسس من القياس Syllogisme الصارم الذي يجعل من سقراط فإن لأنه من البدهية فناء البشر أو مجموع زوايا المثلث 180 درجة أوفي إضافة أو انقاص مقادير متساوية من مجموعات متساوية فتكون النتائج متساوية وكما قال ديكارت : « أن الفلاسفة القدامى لا يقبلون في دراسة الحكمة من كان يجهل الرياضيات فهي ضرورة لتكوين الأفكار واعداد الفهم للعلوم أرفع » ولذلك لم تكن الرياضيات علماً فقط بل وأداة لبناء العلم « إذ ليس أوغل في العبث من الاشتغال بأعداد خيالية وأشكال جوفاء » في اعتقاده إذ أن التأسيس الرياضي للعلم يكفل تسلسل قضاياها وبناء مسلماته على شاكلة النسق الرياضي وهرما يضيف على الحقيقة العلمية طابع البدهية الذي عليه الحقيقة الرياضية .

- أن طابع البدهية Evidence الذي يطبع اليقين الرياضي بميله في الاعتقاد

الكلاسيكي اخلاص الحقيقة الرياضية إلى بعدين أساسيين هما : الواقعية —
 الحدسية والصرامة المنطقية وهو ما استخلصه ديكارت من مبادئ الهندسة
 الاقليدية والتي يكفي أن ندخل عليها التعديلات الجبرية $Algebre$ الأزمة حتى
 تصبح كفيلا بتأسيس العلم الطبيعي (ما فعله ديكارت بابتداع الهندسة التحليلية)
 يقول : إن هذه السلاسل الطويلة من الأدلة التي ألف علماء الهندسة استعمالها
 للوصول إلى أصعب براهينهم أتاحت لي أن أتصور أشياء العلم تتعاقب على
 صورة واحدة " لذلك كان ديكارت كما يقول لا يرى من أساسيات للفيزياء عدا تلك
 المققرة هندسيا ..

— ان الفيزياء الكلاسيكية تعكس هي الأخرى الميل إلى تبديه الحقيقة وتوحيد
 مدلولها فلقد جاءت في القرن 18 فيزياء نيوتن الميكانيكية التي تحدثت عن مبادئ
 شاملة ونهائية ترتكز عليها قوانين الكون ولعل ظهور مبدأ الحتمية -Determi-
 nisme الذي عدّه بوانكاري بمثابة البداية في التفكير العلمي الفيزيائي ما يعكس
 رغبة كلاسيكية في تبديه قوانين نيوتن وأضاف طابع الضبط النهائي على قضاياها
 بحيث تتخذ الطبيعة شكل بنية العلاقات الميكانيكية المنتظمة بصرامة تمكن العالم من
 التنبؤ بحالة الكون القادمة انطلاقا من حركته الراهنة كما تحدث لابلاص مرة .
 لذلك سادت الفكر العلمي هذه الخاصية التي تبحث عن مطابقات نهائية وتحديدات
 صارمة ونهائية للظواهر والعلاقات .

— ان ما سبق يبين كيف أن معنى الحقيقة في الرياضيات قد تغدّى كلاسيكيا من
 مبادئ البداية والحدسية الواقعية والصرامة المنطقية وأن الفيزياء قد أضافت مبادئ
 الضبط والضرورة الآلية لكي يكتسب العلم الكلاسيكي خاصية الثبات ويسلم العقل
 العلمي بسلسلة من الوثوقيات كان تجاوزها ضروريا لتقدم العلم وتجديد بنيته في
 الرياضيات أو في الفيزياء على حدّ السواء .

2 — المدلول الاستيمولوجي المعاصر للحقيقة العلمية :

لا يختلف الاستيمولوجيون بمشاريهم في الإجماع على أن المفهوم

الكلاسيكي للحقيقة أصبح من قبيل العوائق الفقه علمية والتي لا تعكس الواقع الفعلي للنشاط العلمي ، وفغلا بين الاسترداد بما هو قراءة لتاريخ العلم انطلاقا من حاضره ،أن معاني التبديعية والنهائية والضبط ثم لم تصمد إلا فترة وجيزة في تاريخ العلم : فترة مبادئ الهندسة الاقليدية والرياضيات الكلاسيكية ما قبل الاكسيومية والفيزياء النيوتنية وأنه لم يعد مقبولا في العلم الحديث عن حدود نهائية بما هو حقل مراجعات وتنقيحات وتصويب مستمر ودحضانية على رأي باشلار و كارل بوبار وذلك لأن :

أ - واقع نشاط العلمي في الرياضيات قد أكد منذ أزمة الأسس في القرن (19) أو ما نطلق عليه الثورة الاكسيومية أن مفهوم البداهة الذي أثبتت عليه هندسة أقليدس Euclide والرياضيات الكلاسيكية قد أخلى المكان لمعاني الاتساق والفرضية إذ لم يعد شأن الرياضي البحث عن المطابقة مع الواقع بل بناء النسق على أساس افتراضي استنتاجي Hypothetica _ Deductive الذي يضمن انبثاق النتائج عن المقدمات أو الأوليات التي توضع وضعا خارج إطار الصدق والكذب بذلك انفصل الوجه الكلاسيكي بمطابقته عن الوجه المعاصر للرياضيات بأنساقه الفرضية الاستنتاجية الذي يجعل من معنى الحقيقة ما هو من قبيل اليقينية النسقية ذات الأنساق المنطقي والصلاحية Validite وذلك يبين تاريخ الهندسة أن عقلانية العلم الكلاسيكي أصبحت بمثابة العائق أمام ظهور عقلانية جديدة تواكب النشاط الرياضي وأن خصائص التبديع لاقليدي لا تحتل سوى مكانة تطبيقية محدودة أمام الحقل الواسع للنشاط الإنشائي للهندسة وأن أبعاد الفضاء الهندسي الاقليدي الثلاثية ليست سوى تمثلا مبسطا لمكان لا يتمتع العقل عن افتراض أبعاد أخرى غيره وذلك ما تمثله هندستي ريمان في ألمانيا (1857) ولوباتشفسكي من روسيا 1827 ، فالأول افترض قضاء هندسيا كرويا منحني ايجابي والثاني قضاء "مقعر سلبي" لتجاوز مسلمات هندسة اقليدس وبناء منظومة هندسية مخالفة لها ولا تتناقض معها وخصوصا في ما يخص المسلمة

الخامسة الاقليدية التي تعتبر أنه من نقطة خارج مستقيم لا يمكن أن يمر
إلا مستقيم واحد موازي للأول و الرابعة التي تعتبر أن الخط المستقيم يستمر
كذلك إلى ما لا نهاية بحيث كان أصحاب هذه الهندسات اللا اقليدية
أن يرهنوا على امكانية مرور أكثر من خط في المتوازيات وامكانية التقاء المستقيم
بذاته في مجال دائري واستنتاج عدد من القضايا Propositions التي لها
صلوحيتها الهندسية ولعل الأمثلة التالية توضح ذلك عبر اختيار نموذج قضايا
المثلث في الهندسات الثلاث :

الهندسة	الفضاء	الانحناء	مجموع زوايا المثلث
اقليدية	ثلاثي :طول عرض عمق	صفر	قائمتين
لويلا تشفسكي	مقرع creux	أقل من صفر	أقل من قائمتين
ريمان	دائري	أكبر من الصفر	أكبر من قائمتين

ان ظهور هندسات لا اقليدية حقق نتيجتين : الأولى تتمثل في تحرير العقل
الهندسي من تبديياته وجعله علما بالخواص الهندسيته الممكنة لا التطبيقية فقط .
وثانيها توسيع معني الحقيقة الهندسية لكي يشمل مدلول الصلاحية ومعنى
المواضعة Convention و لاتساق Comodite .

ب- واقع النشاط العلمي في الفيزياء قد أكد أن ميكانيكا نيوتن محدودة التطبيق
فهي لا تخص إلا ميكانيكا الماء Celeste السماء Mecanique وحيث كشفت
الفيزياء النووية عن مجالات لا يمكن التطرق إليها بأوليات نيوتن كما هو شأن
الظواهر الميكروفيزيائية كالكهرباء Electrons مثلا فالذي يبينه هذا الحقل أن
مفاهيم نيوتن حول المكان والزمان والحركة والكتلة والعطالة لا تعتمد في حقل

التموجات الالكترونية وتواترها الاحصائي وسرعاتها الهائلة وحساسيتها المفرطة للتعين مما يجب معه توليد ميكانيكا موجية تتسلح بعقلانية رياضية احصائية واحتمالية Probabilite حتى تمكن من مقارنة الظاهرة في تمثلاتها الممكنة وخواصه الفيزيائية ولعل اثباتات هيزنبارك تبين إلى حد بعيد خاصية اللاتعین والاثبات الذي يحيط والارتياح بالحقل الاكتر ومغنطيسي وكان معنى هذا أن ميكانيكا نيوتن تفتقد الصلوحية في حقل تتخذ فيه المادة طابعا كهربائيا وتموجيا بما يجب وفقه تأسيس ميكانيكا كوانطية quantique وحدة الاشعاع الالكتروني) وعليه كان على الفيزياء المعاصرة أن تعيد النظر في شكل عقلانيتها وأن تراجع مفاهيم لضبط والدقة التي تحدثت عنهما فيزياء نيوتن على ضوء معاني الاحتمال والتسبية والتعین الاحصائي

— ان ما تقدم يبين الخصوصية الاستيمولوجية المعاصرة لمعنى الحقيقة العملية الذي افسح المجال للحديث عن تقريبية في العلوم Approximation ونسبية في القوانين Relatiuite واحتمالية وامتثالية في العلاقات Probabilite لكي تتخذ الحقيقة صبغة الحقائق Verites أو اليقينيات التقريبية ذات الطبيعة النسبية Verites de systemes والاتفاقية .



صفحة مجهولة من تاريخ ماسينيسا

بالوطن القبلي

بقلم الأستاذ : جلول عزّونه

1 - تقديم :

1 - إن تاريخ الوطن القبلي موغل في القدم ، قدم وجود الإنسان على الأرض التونسية ، وقدم وجود الإنسان في حوض البحر الأبيض المتوسط ، خصوصا والوطن القبلي يحتلّ مكانا جغرافيا استراتيجيا في هذا البحر ، في مكان القلب الفاصل (مع صقلية) لحوضيه الغربي والشرقي . وهذا ما يفسّر قيمة هذا الجزء من بلادنا في التاريخ القديم والحديث وذلك انطلاقا من مبدأ جغرافي عام يقول بارتباط التاريخ والوقائع بالحقائق الجغرافية بالتالي بتفسير التاريخ بالجغرافي والعكس بالعكس (le geopolitique) (1) .

2 - وإن نتحدث عن فترة ما قبل التاريخ بالوطن القبلي (2) ولا عن الفترة البونيقية (3) خصوصا ولنا في كتابات أستاذنا المختصّ ، محمد حسين فنطر ما يشفي الغليل ، وبالأذات أطروحته الممتازة حول مدينة كركوان البونيقية .
ولنأخذ نريد اليوم التوقّف عند التاريخ المكتوب الخاصّ بالفترة القديمة ، أي أقدم النصوص التاريخية التي وصلتنا والتي تهّم منطقتنا .

3 - وحسب المعلومات التي لدينا فإننا نتوقّر على نصّين قصيرين اثنين في الفترة البونيقية (4)

(i) النصّ الأوّل : نصّ يوناني للمؤرخ الكبير polybe بوليبي (205)
pobios _ en grec / 200 - 125 أو قبل الميلاد / وقد حضر

بنفسه مع " شيبليون ايمليان " حصار مدينة قرطاج عند سقوطها وتدميرها على إثر الحرب البونيقية الثالثة سنة 146 قبل الميلاد .

وفي هذا النص يتحدث بوليب عن انتصار " ريقوليس " القنصل الروماني (256.267 قبل الميلاد) على القرطاجيين .

وقد احتل Regulus مدينة أدين بالوطن القبلي (Adin) بل رهدمها " في مسيرته إلى قرطاج " (5)

ونحن مع Tissot الذي يعتقد أن مدينة أدين هي الآثار الموجودة الآن بهنشير الدالية قرب قرية فرتونة .

وهذا النص نعتبره أقدم وثيقة مكتوبة عن الوطن القبلي وهو نص له قيمته لأن بوليب مؤرخ امتاز كتابه : تاريخ (6) بالدقة والملاحظة الشخصية انطلاقا من عديد الوثائق العلمية والتاريخية التي أمكنه الاطلاع عليها وكذلك انطلاقا من مشاهداته الميدانية وقد زار أغلب بلاد البحر المتوسط الخاضعة للسلطة الرومانية . ومنهج بوليب كان منهجا صارما وهو أول مؤرخ ربط تسلسل الأحداث بعضها ببعض انطلاقا من أسبابها المادية ووصولاً لنتائجها ، مريحا الأسباب الماورائية التي كثيرا ما كان يلجأ إليها المؤرخون القدامى .

(ب) النص الثاني : نص يوناني كذلك وهو للمؤرخ المعروف : ديودور الصقلي (Diodore de Sicile) / سنة 90 - أواخر القرن الأول قبل المسيح / وقد كتب حوالي نصف قرن بعد النص الأول ولكنه يقدم لنا معلومات عن أحداث وقعت قبل الأحداث التي تعرض لها بوليب بحوالي 55 سنة . أي بالضبط تلك التي ترجع إلى سنة 311 قبل الميلاد حين نزل الدكتاتور أفاتوكل Agatocle ، صاحب مدينة Syracuse ، قرب الهوكرية عند زحفه على قرطاج .

وقد احتل أفاتوكل مدينة ميغالوبوليس Megalopolis (أي المدينة الكبيرة) بالوطن القبلي - ولعلها مدينة كركوان ؟ أو مدينة منزل تميم القديمة ، تافخسيت ؟ حسب اقتراح الأستاذ محمد حسين فنطر (إطلاق اسم الهنشير المسمى إلى الآن

كذلك ، في أحواز منزل تميم القريبة ، على اسم المدينة المفقودة ، والتي كانت من أعظم مدن الوطن القبلي كما تشهد بذلك مقبرتها الهامة بسيدي سالم . كما احتل أقاتوكل وطووع كل مدن الوطن القبلي الأخرى أي مدينتي تينس البيضاء وأدين .

ونحن نفهم اهتمام المؤرخين ، ففي حين اهتم بوليب بحملة الروماني ريقليس ، وذلك نظرا لعيشه طيلة 17 سنة كرهينة لدى الرومان بروما بعد احتلال اليونان . وقد كتب تاريخه في تلك الفترة بالذات - بجانب تكليفه فيما بعد ونظرا للثقة التي حظي بها لدى الرومان ، بالإشراف على أولى الولايات الرومانية باليونان ، فإن مؤرخنا الثاني ديودور اهتم بحملة ابن بلده الصقلي السيرا قوزي أقاتوكل .

وهذا التركيز ، في كلا الحالتين ، يكشف طبيعة العلاقات وعمق الانتماء للأرض قديما وحديثا . وتدخل هذه المعركة ضمن سلسلة من المعارك والحروب المتواصلة التي انطلقت منذ القرن السادس قبل المسيح بين قرطاج واليونانيين الغربيين وأساسا في جزيرة صقلية والتي مكنت قرطاج من السيطرة والتفوق ومن تدعيم مركزها التجاري .

(أ) - بين قرطاج وحلفائها القدامى : الأمازيغ (البربر) من ناحية . بايعاز من روما ، وتغذية منها لذلك الصراع .

(ب) وبين فصائل الأمازيغ فيما بينهم ، من ناحية ثانية .

فنحن نعرف أن البربر انتهبوا " فرصة ضعف قرطاجنة لإظهار ما تكفه صدورهم من البغضاء لهذه الحكومة التي لم تحسن معاملة رعاياها حتى سمعوا من استيلائها عليهم فأخذوا يهدون سلطتها ويشنون عليها الغارات المتوالية . وكان في مقدمة هؤلاء البربر زعماء ، أشدهم بأسا (ماسينيسا) أمير (نوميديا) (9) ولم يقد قرطاج شكوايها العديدة للجمهورية الرومانية حامية البربر بل كانت تساعدهم خفية على إيقاع الثورة وإحداث الهرج ضد عتوتها . " (10)

وقد دامت هذه الحالة قرابة نصف قرن انطلاقا من سنة 201 قبل الميلاد أي

منذ موقعة جامة التي انظم فيها البربر للرومان إلى حين انطلاق الحرب البونيقية الثالثة . وبالبضبط انطلقت ربما منذ نهاية الحرب البونية الأولى - وثورة المرتزقة - وتبلورت ملامحها في السنوات الأخيرة للحرب البونيقية الثانية وسيلعب ماسينيسا الدور الرئيسي في هذه الفترة الإنتقالية .

4 - ماسينيسا (أو ماكسن) :

دخل ماسينيسا التاريخ حين وافق على التحالف مع الرومان ضد قرطاج وحبّبل قبيل معركة جامة وذلك حين نجح شيبليون الافريقي Scipion l,Africain عند حلوله بالسواحل الإفريقية - في جلب القوآد النوميديين إلى صفه .

وقد نصّت معاهدة الصلح بين روما وقرطاج فيما نصّت عليه أن تتخلّى قرطاج للقائد النوميدي ماسينيسا (Massinissa) " عن كلّ الأراضي التي كانت في حوزته أو في حوزة آبائه وأجداده . وكانت بذلك نهاية قرطاج من حيث هي قوّة متوسطة ، فقد أضحت نتيجة شروط المعاهدة القاسية ضحية مقيدة قدّمت لنهم ماسينيسا الضارى .⁽¹¹⁾

وقد دام ملك ماسينيسا من سنة (202 إلى سنة 148 قبل الميلاد) أي 54 سنة . وكانت عاصمته سيرتا (Cirta) أي قسنطينة . وقد تسلّط بقوّته أساسا ضدّ قرطاج :

" وقد أخذ ماسينيسا " يقضم " المقاطعات القرطاجنية القطعة بعد الأخرى ، على مرأى ومسمع من الرومانيين ، وكانوا محايدين في الظاهر بينما كانوا في حقيقة الأمر مؤيدين لصنيعه وذلك في سنوات : 193 و 182 و 172 و 162 وأخيرا سنتي 153 و 152 قبل الميلاد " (12) ونلاحظ أنّ الحملات التي وصلت حتّى السهول الوسطى لوادي مجردة (أي أحواز قرطاج ؟) كانت تتمّ كلّ عشرة سنوات بمعدّل غزوة كبرى في كلّ عقد دون احتساب المناوشات

وقد ردّت قرطاج الفعل سنة 150 باعلان الحرب لكنّها خسرتها . ولكن روما مع هذا أعلنت الحرب على قرطاج والسبب العميق لهذا لا خوفها من قرطاج المقلومة

الأظافر ولكن ما كان يخفيها هو " منع ماسينيسا من دخول قرطاج ومن جعلها مركزاً لقوة جديدة قد لا تحمد عقباها " (13) في مواجهة روما .

وكان نجاح ماسينيسا هذا يفسر لا فقط بتحالفه مع روما ، القوة الصاعدة ، ولا بجمعه كلّ النوميديين حوله ولكن بعزلة قرطاج الداخلية نتيجة النظام البونيقي الذي فرضته والذي كان يركز أساساً :

(أ) على استغلال معظم اللوبيين الكادحين كعمال زراعة في الأراضي التي اغتصبوها منهم اغتصاباً طوال القرون ، فكانوا مزارعين يدفعون بالنصيب الأوفر من الإنتاج للملاكين المقيمين في قرطاج وفي المدن الكبرى ..

(ب) على إثقال كاهل القبائل البربرية بالضرائب المجفة ، بعد أن وقع دفعها وطردها نحو المناطق الهامشية من جبال وفيافي

فكان هذا النظام البونيقي قد أفرز أعداء كثيرين وجعل المجتمع ينقسم بدوره " إلى مجموعات متقاوتة في الثراء ، شديدة التباين والفوارق اجتماعياً وجهوياً وثقافياً بين سكّان المدن والقرى وما حولها وبين سكّان الأرياف الذين أطردوا من مواطنهم وغلبوا على أمرهم . (15)

3 _ بدايات ماسينيسا وتحول سنة 206 قبل المسيح :

تلك كانت فترة ملك ماسينيسا الطويلة وطموحاته لتوحيد شمال افريقيا تحت شعار : افريقيا للإفريقيين ، وهو ما سيجاول فيما بعد حفيده يوغرطة ، تحقيقه بدون أن يتمكن من ذلك ، رغم التحالف الواضح لماسينيسا مع الرومان (11) ولكن ما يهمنا اليوم ، هو نص " Live _ Tite (تيت ليف) المؤرخ الروماني الشهير وبدايات ماسينيسا قبيل تحالفه مع الروماني شيببون ، الذي سيلقب فيما بعد انتصاره على حنبعل ب " الإفريقي " .

لقد بقي ماسينيسا يحارب مع القرطاجنيين في شبه جزيرة الإيبير من سنة 212 إلى 206 قبل المسيح . وتوفي أبوه الملك غيّه ، ملك بني ماسيل / Oesalces / عند إقامته بإسبانيا ، وتولّى العرش أوزقلاس ، أكبر الأمراء سنّا

حسب قوانين الخلافة المعمول به عندئذ (12) ، وبعد وفاته خلفه ابنه الأكبر لكن سرعان ما قتله أحد المتمردين (Mezetule) وبقي وصياً على العرش الذي وضع عليه أخ الملك القتييل Lucumaces الطفل . في حين أن الملك يرجع لمسينيسا الغائب .

وقد تقرب المتمرد من قرطاج (13) وكانت سياسة هذه الأخيرة سياسة مصالح لا سياسة مساندة الشرعية ، أي كانت في حاجة إلى حليف قوي وإلى التعامل مع دولة قائمة ، فسادت وتحالفت مع المتمرد وهو يمثل قوة منظمة ضد الأمير الغائب المشرد ، وهو لا يمثل أي قوة أو أي خطر .

ثم عملت قرطاج كذلك إلى التقرب من أمير بني مازيسيل سيفاكس (Syphax) وتصاهرت معه (زواجه من صفونزبه Sophonisbe ودعمت تحالفها معه أمام تصاعد خطر الرومان واستمرار الحرب ضدهم وعدم تمكن حنبعل من القضاء على روما رغم مرور أعوام طويلة لأنه لم يستطع التحالف مع اللاتين ، سكان إيطاليا وحلفاء روما القدامى (14) . وقد اعتقدت قرطاج هكذا أنها استحكمت أمور الشؤون الداخلية في جبهة موحدة ضد نزول الرومان بأراضيها وأهملت الشرعية ، شرعية ماسينيسا ، ممّا سيكون له أخطر النتائج - أنيا - على وضعها كقوة عظمى في العالم القديم ، وبالأخص في المجال البعيد ، على وجودها تماماً .

وكانت روما وشيبيون يبحثان عن حليف وفيّ تلتقي مصالحها مع مصالحه وحاولا التقرب من سيفاكس . ولكن هذا لم يتم لانحياز سيفاكس النهائي لقرطاج كما رأينا . فكانت مبادرة ماسينيسا بالإتصال بشيبيون والقسم المتبادل من أجل توثيق التحالف ، وكان الطرفان في وضعية لا تسمح لهما بغير ذلك :

- فشبيون لم يجد أي طرف يقبل مد يد المعونة إليه وهو يدرك جيداً أن النزول بأفريقيّة بدون حليف وعيون قد يكون خيماً خصوصاً وهو يعلم فشل المحاولتين السابقتين لكل من أقاتوكل وريقوليس .

- وماسينيسا قد سدت في وجهه كل الأبواب ، وعرف بواطن قرطاج التي لم

يكن تهمها إلا مصلحتها ولم ترد تأجيل الخلافات الأمازيغية بحثاً عن الشرعية ، فتلك أمور ثانوية بالنسبة إليها وما على ماسينيسا إلا الرضوخ للأمر الواقع . وهكذا عاد ماسينيسا إلى أرض الوطن في خريف سنة 206 قبل المسيح . ولم يجد إلا عدداً قليلاً ممن بقي مخلصاً إليه من بني جلدته / 500 حسب Tite / live / ولكن جرأته وإيمانه بحقّه جعلاه يتجاوز كلّ الصعاب ويأمل في التفاف النوميديين حوله يوماً ما ، فهاجم الأمير المتمرّد وقتل الكثير من جنوده . فالتحق به الكثيرون يعزّزون صفوفه واسترجع عرشه بعد موقعة ثانية . ولكن قرطاج عرضت سيفاكس ضده ملفقة نظره إلى طموح ماسينيسا وخطره في الآن نفسه على قرطاج وعلى مملكة بني مازيسيل (15) فاقتنع سيفاكس بذلك وشرع في مطاردة ماسينيسا .

4 النصف الثالث : نصّ تيت ليف (Tite Live) (16)

PARAGRAPHÉ XXIII Livre XXIX (الكاتب التاسع والعشرون

الفقرة 23

... وفي نفس الوقت الذي كانت تتم فيه هذه الأمور برؤسها ، كان القرطاجيون قد ركّزوا مجموعات عسس فوق كلّ الرؤوس البحرية وكانوا يتسكّطون الأخبار باستجواب كلّ الناس ، وكانوا يشعرون بالرهبة عند حلول كلّ خبر ، وقضوا الشتاء في حالة استنفار .

ولكنهم استطاعوا عقد ملفّ له أهمية قصوى في الدفاع عن افريقية حين أقنعوا الملك سيفاكس بالوقوف إلى جانب قضيتهم .

الفقرة : 25

وتلقّى البحارة الأمر بالتّوحد نحو امبورياس (16) Empria Empories وكانت تلك الجهة الخصبة جداً . وكانت تنتج بكثرة كلّ أنواع الخيرات لذلك ، كما يحدث عادة في البلدان الغنيّة ، فإنّ البرابرة كانوا قليلي العداوة . وكان في الإمكان إذن إخضاعهم قبل أن تتمكّن قرطاج من إسعافهم . ويعد أن أعطاهم

هذه التعليمات ، أمرهم شيبليون بالإلتحاق بمراكبهم وبالإقلاع مع الغد ، تحت حماية الآلهة ، وحسب الإشارة التي ستعطى إليهم . "

الفقرة 26 :

" لقد رأت صقلية عديد الأساطيل الرومانية وبالذات من مرفأ ليليبي (Lilybee) (17) . ولكن هذا الانطلاق تميّز هذه المرة بمنظره المهيّب فلا مجال لمقارنته لا بانطلاقات الحرب البونية الأولى ولا بغيرها والتي كانت بدون مفاجآت لأنها كانت تقتصر - تلك الحملات البحرية - على هدف وحيد أغلب الأحيان وهو نهب السواحل والشطوط ... "

الفقرة 27 :

" وما إن ظهر النهار ، حتّى أطلّ شيبليون من أعلى سفينة القيادة وطلب عن طريق " البرآح " الصمت وتوجّه بالصلاة (للآلهة ...)
... وقد تواصل الضباب في الليلة المقبلة ولكنه زال مع بزوغ الشمس وهبّت الرياح بأكثّر قوّة . ولاحت الأرض وأعلن البحار عن ذلك : " لم يعد يفصلنا عن الأرض إلّا خمسة أميال . لقد ظهر رأس الإله مركير (Mercury) (18) ولو يأمر الجنرال ، فإنّ الأسطول كلّه سيكون عمّا قريب بالمرفأ . "
وحين أبصر شيبليون الساحل ، شكر الآلهة باسمه وباسم الجمهورية لتمكينه من رؤية افريقية . ثمّ أمر بأن تفتح الأشرعة بقوة والتوجّه نحو الجنوب للبحث عن نقطة للإنزال .

وكانت نفس قوّة الريح هي التي تدفع الأسطول - ولكن ظهر ضباب في نفس الساعة تقريبا التي ظهر فيها يوم أمس ، وحجب منظر الأرض وانخفضت الريح . وحلّ الليل فتضاعف الشك والتردد .

وحتى لا تصطدم السفن ببعضها بعضا أو تحجزها الحجارة أو الرمال أرسى البحارة هناك . وفي الفجر ، هبّت الريح من جديد فانقشع الضباب وظهرت كامل شطآن افريقية ، فسأل شيبليون عن اسم الرأس المجاور ، فأجابوه بأنّه يسمّى

الرأس الجميل فقال شيبليون : le Beau promontoire = Pulchri promotorium :
حسنًا ، إنِّي أقبل هذا الطالع وهذا الغال الحسن ، لننزل هنا ، وتوجّه الأسطول
إلى هناك La Flott (S,Y) ونزلت كلّ الجيوش ، / Porta / Eo classis de-
currit

وقد تمثّلت هذه السفرة ووصفتها اطمئناننا مني لكثير من روايات كتاب يونانيين
وثقة بهم . وقد أجمعوا على أنّها كانت موفقة وسعيدة وقد تمّت بدون أخطار وينظام
تمامً .

ولم يخرج عن هذا الإجماع إلّاسيليس (Coelius) (Celius) الذي قال بأنّه لم يفرق
أحد ولكنّ الأسطول قد تعرّض لغضب السماء والبحر بقوة وأنّ العاصفة حملت
الأسطول بعيدا عن أرض افريقية إلى مقربة من جزيرة الجامور (19) وأنّها لم
تستطع الرجوع لطريقها إلّا بصعوبة كبيرة . وأنّ السفن أوشكت أن تبتلعها
المياه.

وأنّ الجنود ارتعوا في قوارب النجاة ، رغم أوامر الجنرال ، وكانهم في دوامة
خطر الغرق ، وأنهم وصلوا إلى الشاطئ بدون أسلحة وفي حالة من الإضطراب
كبيرة . (20)

الفقرة 28 :

" ولما نزلت الجيوش برّاً ، وقع بناء الموقع العسكري فوق المرتفعات المجاورة
ويسرعة انتشر على طول للساحل الهلع والخوف نتيجة حجم الأسطول أولاً
وثانياً من جرّاء تحركات الجيوش ونزولها للبرّ . ووصل هذا الهلع حتّى إلى داخل
المدن . وكنت ترى عديد الرجال والنساء والأطفال في اضطراب كبير يملأون هنا
وهناك كلّ الطرق ، وقطعاناً من الماشية يدفعها سكّان الأرياف أمامهم وكلّ هذا
يويحي وكانّ افريقية سيقع هجرها فجأة . وكان هؤلاء الفارّون يحملون معهم وسط
المدن ارتعاداً أكبر ممّا كانوا يشعرون به هم أنفسهم . وبالأخصّ في قرطاج
بالذات التي عرفت اضطراباً يشبه ما يحدث في مدينة يقع أخذها عنوة . وهذا

يرجع إلى أن (سكان هذه المناطق) لم يروا جيشا رومانياً منذ تولى م . أثيليوس ريقوليس (M . Atilius Regulus) ول . منلييس (L . Manlius) القنصليّة أي تقريباً منذ خمسين سنة . وكانت القرصنة تقتصر على نزول بعض السفن وإنزال بعض العساكر التي تقوم بتدمير الأرياف القريبة من البحر ، ويافتكاك ما يقع صدفة تحت أيديهم ثم يركبون سفنهم قبل أن ينتبه العدو إليهم ويطلق صرخات الانذار فتجتمع السكّان وتهاجمهم . وهكذا وصل الذعر والاضطراب أوجهما في مدينة قرطاج لأنها لم تكن تملك داخل أسوارها لا جيشاً قوياً ولا جنرالاً له من الحنكة ممّا يسمح له بالوقوف بنديّه أمام شيبليون ... وقد وقع الإعتقاد بأنّ شيبليون سيهاجم قرطاج مباشرة .. ومن الغد بعثوا 500 فارس للإستكشاف في اتجاه البحر ، مع الأمر بمنع الإنزال ، فتصادموا مع مقدّمة الرومان لأنّ شيبليون كان قد بعث الأسطول لمدينة أوتيك (عتيقة) (21) وبدون الابتعاد كثيراً عن الساحل ، كان قد استولى على المرتفعات المجاورة (22) وقد ربّت مجموعات من الفرسان في مواقع أساسيّة وجّه باقي الخيّالة لنهب الريف .”

فقرة 29 :

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

” ... ولم يكتف شيبليون بتدمير الأرياف المجاورة ، بل أخذ أقرب مدينة من هناك وكانت ذات ثراء لا بأس به (23) ويجانب الغنائم التي حملت على سفن النقل وتوجّهت نحو صقلية ، فقد تمكّن من أسر ثمانية آلاف شخص ما بين أحرار وعبيد ولكن ما سرّ الرومانيين أكثر من غيره ، في مستهلّ هذه الحملة ، هو وصول ماسينيسا الذي كان مصحوباً حسب بعضهم بمائتي رجل على أقصى تقدير ، وحسب أغلب المؤرّخين بالقى فارس . ”

فقرة 31 :

” ... وأعلن سيفاكس الحرب على ماسينيسا ، وعند اللقاء الأوّل هزم الماسيلييين (24) الذين اضطروا للفرار . وقد التجأ ماسينيسا ، مع نفر قليل من فرسانه ، هارباً من موقع المعركة إلى جبل يسمّى الأهالي هناك : بلبيس = Balbus (26) بلوزا /

وقد التحقت به بعض العائلات بخيامهم وقطعانهم وهو ما يمثل كل ممتلكاتهم .
ورضخ بقية الماسيليين لسلطة سفاكس .

وكان الجبل الذي أوى إليه المنفيون يحتوى على كميات كبيرة من العيون والمراعى
وقد وجدت قطعان الماشية هناك حشائش جيدة وكان الناس يتغنون باللحم واللبن
لذلك كان عيشهم رغدا ووفيرا . ولكنهم سرعان ما خرجوا من مخبئهم بشكل
متخفي متسترون بجنح الليل وشرعوا في استقطاع مكشوف وروعوا كامل البلاد
المجاورة وكانت هجوماتهم تستهدف أساسا أراضي القرطاجيين التي كانت أكثر
خصبا من أراضي النوميديين وكذلك لأنهم بصنعهم هذا كانوا يعرفون أنهم
يتعرضون إلى خطر أقل . وقد وصل بهم تمردهم وكذلك جرأتهم إلى حمل
سلعهم إلى شاطئ البحر وعرض سلعهم للبيع . فحبّ الرّيح هو الذي دفعهم نحو
هذه الجهة من الشاطئ ، وكانت قرطاج ، تخسر ، في هذه الهجومات الفجئية
أكثر أمواتا وأسرى مما تخسره عادة في حرب نظامية . لذلك اشتكى القرطاجيون
من ذلك لدى سيفاكس وألحوا عليه للقضاء على بقايا الأعداء ،
وكان هذا الأمير متحيرا من أعمال قطع الطرق هذه ولكنه كان
يعتبر أنه من غير المناسب ملك أن يطاردا قاطع طريق يهيم
في الجبال . (27)

فقرة 32:

وقع تكليف بوكار بهذه الحملة وهو أحد ضباط سيفاكس ، وكان رجلا شجاعا
وحركيا . ووضعوا تحت إمرته أربعة آلاف رجل من المشاة وألفي جواد ووعده
بأحسن الجوائز إذا ما تمكّن من الفوز برأس ماسينييس والإتيان به أو ما استطاع
القبض عليه حيا .

وفعلنا فإنّ الخدمة الأخيرة بالخصوص لا يمكن أن تقدّر بثمن .
وقد باغت بوكار الماسيليين وانقضّ عليهم ، وكانوا في غفلة عن ذلك ، منتشرين
ويبنون حيطة أو تأهب ، واستطاع الفصل بين قطعانهم وبين قوادر الفرق المكفّلة

بحمايتها . ودفع ماسينيسا نفسه وكان في جمع قليل العدد ، إلى اللجوء حتَّى قمة الجبل .

واعتبارا منه أنَّ الحرب قد انتهت تقريبا ، بعث بوكار بالغنائم والقطعان والأسرى لسيفاكس ، وسرَّح جزءا من عساكره معتبرا أنَّ العدد الذي لديه كبير جداً لإخضاع بقية الأعداء المحبوبي العدد . فلم يبق معه إلا ألف جندي من المشاة وحوالي مائتي فارس ، وانطلق يلاحق ماسينيسا ، الذي نزل من المرتفعات وتمكَّن من سد المنافذ عليه ومحاصرته وسط واد ضيق وأحكم إغلاق منفذه ، وهناك تمَّت مذبحة دامية للعاسيليين وتمكَّن ماسينيسا من الإفلات مع خمسين من فرسانه تقريبا وذلك عن طريق مسارب في الجبل مجهولة من أعدائه .

ولكن بوكار تابع خطاه ، والتحق به في السهول الواسعة ، قرب قليبية وأحاط به بشكل استطاع به قتل كل الجنود ما عدى أربعة فرسان : وكان ماسينيسا ضمنتهم ، وكان جريحا وأقلت من أيدي العدو بفضل المعونة وتداخل أمور القتال ولم يغفل المنتصرون عن الهاربين وتابعوهم بالنظر ثم انتشرت الخيالة كلهم في السهل للملاحقة هؤلاء الرجال الخمسة .
واخترقوا السهل من وسطه لأعراض طريق الفارين ومباغتتهم واختزالا للمسافة . واعترض الفارين في الطريق واد متسع وعريض (28) ولم يتردُّوا في خوض مياهه بجيادهم وذلك للخلاص من خطر أكبر . ولكن المياه جرفتهم وحملتهم في اتجاه مقابل

والتهمت المياه العميقة والسريعة اثنين من الفرسان تحت أنظار الأعداء بالذات واعتقدوا أنَّ ماسينيسا هناك كذلك . ولكن الفارسين المتبقيين معه وصلوا معه إلى الضفة الأخرى واختفوا وسط شجيرات الغابة فكفَّ بوكار عندئذ من المطاردة ولم يجرأ على الدخول وسط النهر واعتقد فعلا أنَّه لم يعد يوجد أي شخص ليلاحقه . ورجع حنو سيفاكس ليحمل إليه الخبر الكاذب حول موت ماسينيسا . ثم أوصلوا الخبر إلى قرطاج فكان سببا في مظاهر كبيرة للفرح ، وقد كان لوقع هذا الموت

أثره بدرجات مختلفة حين انتشر الخبر في كامل إفريقية .

أما ماسينيسا ، فقد اختفى داخل مغارة ، أين داوى جرحه بواسطة الأعشاب -
وقضى هناك أياماً عديدة وتمكّن من العيش بفضل سرقات الأغذية التي كان رفيقاه
يقومان بها . وما إن انغلق الجرح ، وما إن شعر بأنه في إمكانه التحرك ، لم يستمع
إلا لشجاعته وغدّ السير لفتح مملكته واسترجاعها . وبعد أن جمع في طريقه حوالي
أربعين فارساً ، وصل لبلاد الماسيليين وعرف بنفسه .

فكانت الثورة العامة نتيجة حبّ أهل بلده له وفرحهم الذي يشعرون منه ، بعودة
أميرهم ، معافى بعد أن اعتقدوا موته ، فجمع في أيام قليلة تحت إمرته سنة آلاف
من المشاة مسلّحين كما ينبغي وأربعة آلاف فارس . وبسرعة استرجع ملك أبائه . ثمّ
زحف على أراضي حلفاء قرطاج وعات فيها فساداً وكذلك زحف على أراضي
المازييليين (Les Masesyliens) رعايا سيفاكس . وهكذا أرغم هذا الأمير
للدخول في الحرب - وذهب ماسينيسا وتمركز بين سيرتا (29) Cirta وهيون
(30) على المرتفعات التي كانت تعطيه إنتاجاً معيشياً مختلفاً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhril.com

* الخاتمة *

(1) - هذه هي إذن أهم الفقرات التي ارتأيت ترجمتها بأكثر دقّة ممكنة عن Tite
Live، وهي بما أحتوت عليه من معلومات وبالأخص ما أشارت إليه من نزول
شيبيون بالرأس الطيّب بكلّ وضوح أوّل وصوله لإفريقية وكذلك فرار ماسينيسا جهة
سهل قليبية ، عند مطاردته من طرف بوكار - تدلّ - بما لا يدع مجالاً للشكّ على
الدور الكبير الذي لعبه الوطن القبلي في الفترة التي سبقت نهاية الحرب البونيقية
الثانية .

وهذا الدور تفرضه المعطيات الجغرافية والعسكرية ، فشيبيون لا يمكنه أوّل قنومه
النزول نحو أوتيكه وهي ثاني المدن القرطاجية بل نزل في خليج تونس فسي مكان
يسمح له استراتيجياً بمراقبة كلّ من قرطاج وأوتيك ، وهذا المكان هو الوطن القبلي
ثمّ إنّ إبحار شيبيون كان من صقلية مثل جلّ الحملات اليونانية والرومانية السابقة

(2) ومن ناحية أخرى يمكن أن نفهم لجوء ماسينيسا عند فراره من ملاحقة سيفاكس إلى الوطن القبلي ، تلك اليد الممدودة نحو إيطاليا وروما وخصوصا ونحن نعلم المعاهدة والتحالف السريين الذين عقدهما مع شيبليون في إسبانيا قبل مدة وجيزة وقد يشس من قرطاج التي ضحّت به ويمملكته من أجل مصالحها العاجلة ولا شك أنّه وهو يستحثّ قنوم شيبليون لأفريقية ، قد أعلمته ، هذا الأخير أنّ مقدمه سيكون من صقلية ، وفعلًا فلا يوجد إلا ذلك الطريق ، المرّ الضيق بين البلدين ، وماسينيسا ، وهو ينهزم ، سيكون أمامه خياران لا ثالث لهما إمّا الفرار نحو الجنوب ، نحو خليج سيرت الصغرى (قابس) وهو ما سيفعله في الهزيمة الثانية (فقرة 33 الباب 29 من تاريخ تيت ليف) وإمّا الفرار نحو الوطن القبلي أي إلى أقرب موقع ممكن من حلفائه الجدد ، الرمان . وقد لعب الوطن القبلي نفس الدور تماما في الحرب العالمية الثانية كمرّ ضروريّ لجيوش المحور أولاً (الألمان والitalians) ثمّ لجيوش الحلفاء ، وكان الوطن القبلي نهاية المطاف لجيوش المحور المنهزمة في ماي 1943 ، فالمعطيات الجغرافية العسكرية هي التي تتحكّم في الأحداث وتوجّهها وتفرض عليها طبيعتها ومآلها .

(3) وكلّ هذا الذي ذهبنا إليه ، في قراءتنا الجديدة للأحداث وتفسيرها يؤكده اختلاف المؤرخين القدامى والجدد في ضبط المواقع العمرانية والجغرافية وترددهم في ذلك واضطراب المعطيات لديهم .

فهذا Reinach و Tissot وقبلهما Tite Live والآن فنظر يقدمون تأويلات متباينة - ففمنظر يضع جبل بلوّز في سهول جنوبية ويوسالم ؟ والنهر مجرّدة ؟ الخ ... (31)

وربّما امتازت قراءتنا التي تبرز دور الوطن القبلي ، بكونها أكثر القراءات منطقية وتماشيا مع تطوّر الأمور الحربية . رغم أننا نفهم انزلاق المؤرخين الذين شدّتهم ضرورة أن تدور الأحداث الهامة في المناطق الحدودية بين الممالك ، والمنطقة الشمالية الغربية لتونس (جاما - جنوبية - بوسالم - مكثر - الكاف) هي المناطق

المشي لذلك لوجودها بين ثلاث ممالك ، قرطاج والماسيليين والمازسيليين ، وفعلا ستلعب تلك المنطقة الحدودية - والتي تمثل نقطة التقاء المطامع والطموحات - الدور الحاسم والفاصل - أما منطقة الوطن القبلي فستلعب الدور الذي يحدده لها وضعها الجغرافي : أي الوصل بين العالمين في فترة الحرب الأولى عند قدوم شيبليون لأول مرة وعند فترة دعم التحالفات الجديدة ، أي زمن الشك والاحتياط والخوف والريبة (بين الرومان وماسينيوس)

(4) تلك إذن قراءتنا للأحداث وهي قراءة لم تعتمد علم الحفريات والخرائط الأثرية (Archeologie) وإنما النصوص الأدبية التاريخية حين كان التاريخ أدبا والأدب تاريخا وهذا تماشيا مع اختصاصي (وأنا أدرّس الأدب القديم المترجم) ولكن مع هذا اعتمدنا منهج مقارنة النصوص ونقدها ، دافعنا في ذلك إعادة قراءة تاريخنا من وجهة نظر وطنية ، نزعم أنّها مع ذلك أكثر موضوعية لأنه من تحصيل الحاصل ضرورة الاحتياط من " موضوعية " اليونان وبالأخص الرومان لأنهم كانوا خصوم بلادنا ولأنهم كتبوا تاريخهم بهدف تمجيد تعدي ، أي إبراز عظمة روما ولا شيء غير ذلك .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

المصادر والمراجع

1 - المصادر :

- 1_ titre live : Histoire Romaine _ T.2 collection des auteurs latins avec la traduction en Francais _ publies la direction de M .Nisard _ Paris _ Imprimerie d,A . Everat et C.
(Surtout du Livre 27 au livre 30). Sans date _ 911 page Didore
- 2_ Diodore de Sicile : La Bibliotheque historique _ Livre 1er
- 3_ Polybe : Histoire
- 4_ Salluste : Jugurtha , texte etabli et traduit par A . Ermont.
coll . Bude _ Paris _ 1971 _ 315 p:

2 - المراجع : باللغة الفرنسية

- 5_ F.Gaffiot : Dictionnaire illustre Latin _ Francais

Paris _ 1966 _ 1720 Pages

6_ Mohamed Cherif Sahli : Le Message de yougourtha

Mariame _ Paris _ 1968 _ 110 pages _

7_ Salluste : Catilina et Jugurtha _ Les classiques pour tous _

Librairie Hatier _ 1938 _ 64 pages _

8_ Charles Saumagnes : La Numidie et Rome , Massinissa et Jugurtha _ P.U.F. Publications de l'Universite de Tunis 1966 _ 267 pages _

9_ Maurice Rat : Les beaux textes de l'Antiquite.

(traduits en francais) T .III. 1960 . 190 pages _ Nathan

10_ F .Triki : L'esprit historien dans la civilisation arabe et islamique M.T.E Tunis . 1992

(voir compte _ rendu _ Le Temps 26 _ 2 _ 1992 p .8

11_ LM Histoire : Bibliotheque des Laffont des grands themes 1975 _ 144 pages _

12_ Article : A Fremont : Le retour des geographes Le Monde 5/3/ 93 p 28.

13_ Colloque : Etre historien aujourd'hui , Nice 24 et 25 Fevrier 1986 compte _ rendu la discussion des communications _ et compte _ rendu de la discussion des rapports de synthese _ 123 pages _ (dactylographie)

14_ M.H .Fantar : Kerkouane , cite punique du cap_Bon INAA_ 1984_

/ انتظر ، نقدنا للكتاب : المصباح 29 / 12 / 1984 م 9

15_ M.H.Fantar : Eschatologie phenicienne punique

INAA _ 1970 _ (38 pages + 17 planches)

16_ H.Gallet de Santerre et L.Slim : Recherches sur les necropoles puniques de Kerkouane _ Tunis _ INAA_ 1983 _ (47p + 37 planches)

17_ Ch.Tissot et S.Reinach : Geographie comparee de la province romaine d'Afrique.

18_ Stephane Gsell: Histoire ancienne de l'Afrique du Nord _ 8 volumes paris _ 1918 _ 1928

. Weyland J: Le Cap Bon _ Etude Historique et economique _ Impr
La Rapide _ 1926 _ 126 p.

* المراجع باللغة العربية :

- (20) محمد فطر : يوغرطة ، الدار التونسية للنشر - 1970 - 302 ص
- (21) هريمان وفريمان : يوغرطا ، شبل الرمال تعريب لطيفة قايدى ، الدار التونسية للنشر -
ومؤسسة اللعبار - بلجيكا - 46 صفحة 1983 -
- (22) جلول عزّونه : منزل تميم ، عاصمة الدخلة - الاخلاء - 1984 - 176 ص
- (23) محمد الهادي الشريف : تاريخ تونس - سراس للنشر - 1980
- (24) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس - ط 3 - دار الكتب الشرقية تونس
1373 هـ -
- (25) شارل أندري جوليان : تاريخ شمال افريقيا (جزآن) تعريب محمد مزالي والبشير بن
سلامة .
- (26) محمد الحبيب نصر : مسرحيات : يوغرطة ويوكوس ... الخ المطبعة العصرية - تونس
(130 صفحة من الحجم الصغير) بدون تاريخ
- (27) محيي الدين اسماعيل : توينبي - منهج التاريخ وفلسفة التاريخ - دار الشؤون الثقافية العامة
- بغداد - 1986 - 87 صفحة .
- (28) ج هرنشو : علم التاريخ - ترجمة عبد الحميد عبادي - دار الحداثة بيروت - 1988 -
160 صفحة
- (29) علي أدهم : تاريخ التاريخ - دار المعارف بمصر - 64 صفحة - 1977
- (30) عبد الله العروي : مفهوم التاريخ - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - 222 صفحة
- (31) مفهوم التاريخ (عند المؤرخين المسلمين المتأخرين) - بقلم دليل الصقلي محيي الدين -
جريد الإنحاك الاشتراكي (المغرب) 1991/12/22 ص 7 (1991/12/1) ص 2
- (32) حسين أحمد أمين : حول الكتابة التاريخية عند المسلمين - مجلة العربي (الكويت) سبتمبر
1992 - ص 93 وما بعدها -
- (33) عبد العزيز الدوري : كتابة التاريخ العربي : مجلّة المستقبل العربي (25 جوان 1992)
- (34) جلول عزّونه : متى يقع الاعتناء بأدب ؟ الحرية المحق الثقافي (1992/4/14)
- ص 14 و 15 (مقال)
- (35) أبو نودان : منزل تميم ، قرية فرتونة وتهاون السلط - جريدة الوحدة - 1984/4/14 -
ص 6 -

الهوامش :

Armand Fremond : Le retour des geographes _ le Monde 5 Mars (1)
1993 _ p28 ARTICLE

(2) انظر كتابنا : منزل تمين عاصمة الدخلة - الأخلوة - 1984 - 276 ص . الفصل الثاني -

منزل تميم في عصور ما قبل التاريخ - (من ص 30 إلى ص 45)

(3) انظر كتابنا المذكور - الفصل الثالث من ص 46 إلى ص 51

(4) أطروحة محمد حسين فنطر : Bon _ cite punique du cap Karkouane / قدمنا

هذه الأطروحة : الصباح 1984 / 2 / 29 / I.N.A.A

انظر كذلك :

Mohamed Fantar : Eschatologie phenicienne punique I.N.A.A 1970
_38 pages 26planches

H.Gallet de Santerre et L.Slim : Recherches sur les necropoles pu
niques de Kerkouane .Tunis _ I.N.A.A 1983

يقع 37 47

(5) جلول عزونه : (مقال) متى الإعتناء بآدين ؟ الحرية - الملحق الثقافي - الخمسين 14 أفريل
1988 ص 14 و 15 -

(6) تاريخ : 4 أجزاء فقط وبعض المقتطفات من الأجزاء الأربعين (40) الأخرى ، وصلتنا بينما
ضاعت البقية .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

(7) ملاحظة : هذا النص الوصفي ، إما أنه منقول من كتاب تاريخي قديم مجهول ضائع ، وهو
أقرب للمنطق ، وصف عن شاهد عيان شارك في حملة أقاتوكل سنة 311 قبل الميلاد!!

أو هو وصف مؤرخنا للمنطقة حوالي نصف قرن قبل المسيح وإسقاط ذلك على الأحداث الماضية
، وهذا مستبعد لأننا لا نعرف إن كان ديونور زار بلادنا أم لا ؟

(8) محمد الهادي الشريف : تاريخ تونس - دار سراس للنشر 1980 - ص 19 - 20
ويضيف ص 24 : " أن أثبت ميزة للحضارة البرنيقية تتمثل في إقامة شبكة كثيفة من المدن أو
القرى شرقي بلاد المغرب ... أصحابها اقتصادي واجتماعي متطور متشابك . ألم تباه قرطاج بأنها
سيدة 300 مدينة ؟ "

(9) نوميديا ، اسم الرومان على جميع القسم الشرقي من بلاد الجزائر والغربي من تونس
وعاصمتها cirta (سيرتا = قسنطينة) ويحدّها غربا موريطانيا (المغرب) نهر Mulucha وشرقا
حدّها = جامة = زاما / وشعبها النوميديون والمساليون بني مازيسيل (وسط الجزائر) وبني
ماسيل (في الأوراس)

(10) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس - ط - 3 الكتب العربية الشرقية - تونس - 1373 - ص 17 - ويضيف عبد الوهاب في الهامش ما يلي : " اسم (ماسينيسا) هو تحريف من الرومان لاسم (ماكسن البربري) .

(11) محمد الهادي الشريف = الكتاب المذكور - ص 22 وما بعدها .

(12) المرجع السابق - ص 23

(13) نفس المرجع - نفس الصفحة -

(14) نفس المرجع - ص 25 -

(15) إن هذه الحالة التاريخية التي خلقت واقعا معينا ، اجتماعيا ونفسيا واقتصاديا سيكون لها أغلب الزثر طوال عشرات القرون ، وستبقى تونس تعيش هذا الإستقطاب العميق إلى سنواتنا هذه في أواخر القرن العشرين المسيحي .

(16) تنظر كتاب : محمد شريف ساحلي : Le message de yougourthe 2 e edition : _ Moriamé _ Paris _ 1968 _ 110 pages _ ch 5 _ p 37 et suivantes

(17) نفس القوانين عرفتها بلادنا في القرنين الأخيرين ، في الدولة الحسينية المنقرضة يوم 25 جويلية 1957 .

(18) انظر حول هذه الفترة المهمة كتاب : محمد فنطر : يوغورطة الدار التونسية للنشر 1970 - 302 صفحات - وبالأخص من الباب الثاني : ماسينيسا الأمير . ص 41 وما بعدها .

(19) لاكما تريد كتب المؤرخين القدامى من أن سيب ذلك انغماس جنود حنبعل في ملذات مدينة كابو Capous جنوب إيطاليا !!

(20) Massiliens La Massilie = le royaume de Massinissa

Masesyliens nation voisine des Maures

Tite Live Histoire Romaine T2 Collection des auteurs latins (21)

avec la traduction en Francais . publies sous la direction de M. Nisard . Paris . Imprimerie d'A. Everat et Cie

إن هذه الترجمة شخصية ، ويمكن إعادة النظر فيها بأكثر تعمق

(22) منطقة المراكز التجارية القرطاجية .

(23) Lilyboeum : وهو أقرب المرافئ الصقلية من إفريقية ، ويوجد في مقابلة الرأس الطيب بالضبط .

(24) (رأس المويخ)

هو الرأس الطيب = الدخلة ، . le promontoire de Mercuru promontorium

Mercure Zeugitane وهو يوجد في المنطقة المسماة قديما

و Hermes _ pour les Grecs Mercure كان سفير الآلهة ، وربّ البلاغة والخطابة والشعراء والتجارة ، ومخترع المزهر (La Lyre) . وهو الذي أعطى اسمه لكوكب المريخ . وليوم الأربعاء (Mercredi) ، وقبده حسب الاعتقاد القديم يوجد قرب قرطاجنة بمنطقة طراقونا (Tarragonaise) بإسبانيا .

(25) الجامور الكبير والجامور الصغير : جزيرتا زميرة وزميرتا قبالة ساحل سيدي داود الآن Aegimurum : Ile Egimure) Aegimurus ou Aegimoros

(26) هذا النص مهم جداً لأنه يظهر لنا أن شيبليون لم ينزل قرب مدينة عتيقة Utique مثلاً

ذهب لذلك جلّ المؤرخين (في موقع قلعة الأندلس الآن) بل بالوطن القبلي ...

(27) لأنّ بها مرفأ حيث يأمن على أسطوله ، في حين أن المكان الذي نزل به لا يملك ذلك التجهيز . ويكون في مكان يبصر منه قرطاج من بعيد .

(28) لعلها مرتفعات جبل قريص ، ويكون نزول شيبليون إما بمنطقة سيدي داود أو بمنطقة تاكلسة

(29) ماهي هذه المدينة ؟ هل هي ميغالوبوليس ؟ أو أدين ؟ أو تينس البيضاء ؟

(30) Les Massyliens = إنّ الأسماء ، أسماء الأماكن وأحياناً الأشخاص تبقى وتخترق

القرن . اسم مصالي بقي في الجزائر إلى أيامنا هذه / انظر: مصالي الحاج الزعيم الوطني الجزائري .

إنّ ماسينيسا لم يوطد أمره بعد . وكان قد استرجع منذ أشهر فقط عاصمته ومملكته ، بعد حروب مع ابن عمه ووصية على العرش . كان ذلك أواخر سنة 206 قبل المسيح .

(31) Balbum ويفهم من سياق الكلام أن المعركة وقعت على الحدود بين ملكتي سيفاكس وماسينيسا

(32) إنّ هذه الأمور يبدو أنّها دارت بالوطن القبلي ، خصوصاً وأنّ سياق الأحداث بعد هذا

ستحدثت عن Clypea قليبية ؟؟؟ وإن وضعها جلّ المؤرخين في أحواز مدينة عنابة الجزائرية !!

ولكن اختلاف وعدم اتفاق على ضبط موقع ذلك الجبل " (فنظر ص 54) قلعه جبل تاويزة قرب حمام الغراز ؟

(33) لعله واد تافضيس أو بالأحرى واد الحجر ما بين قليبية ومنزل تميم ، وأخيرني أبي أن

الوديين لا يمكن اجتيازهما زمن أمطار الخريف الغزيرة أوائل القرن العشرين بعد المسيح ! ثم نحن

نعلم الأشعار التي قالها سيدي أحمد بويكر حول المعارك التي " شهدا أو شاهدها واد الحجر

والدما التي ستغمره ! أفلا تكون الذاكرة دولة بربرية مستقلة

(34) قسطينة الحالية ، وعاصمة سيفاكس

(35) عنابة الحالية : واسمها بالكامل قديماً Hippo Regius

(36) Ch.Tissot et S.Reinach:Geographie comparee de la Province romaine d,Afrique .T .I P.28

الكتابة بالسيف " أو " القول الفاتك "

قراءة في شعر المتنبي

بقلم الأستاذة : فوزية علوي

تحديد الكلمة إذ تنتظم في نسيج القصيدة عن معناها المباشر وتصبح دلالاتها تبعاً
فياضاً مزدحم القطرات ومصدر نور يتوهج ألقاً ويتماوج شعاعه فلا يكاد يمسكه
حتى يفرّ .

وتجني القصيدة لنفسها إذ يكتمل كونها خاصاً له منطقها المتميز ونواميسه
الفريدة ويصبح الشعر عندئذ عالماً " لغوياً " متعالياً عن العالم الموضوعي متفوقاً عنه
وتفوقه إنما يكمن في هذه القدرة التي له على تطويع الأشياء وإخضاعها إذ يكفي
الشاعر أن يقول للشئ كن حتى يكون ، في حين يبقى العالم المادي الذي نعيش
نحن " غير الشعراء " والذي تُترجم عنه اللغة العادية موثوقاً بأصفاة الممكن
والذي لا يكون .

وإذا ما كنا نحن غير الشعراء نعيش تحت المنطق والانتظام الطبيعي للأشياء
فننتظر الربيع بعد الشتاء فالشعراء يعطر ربيعهم ويقيظ شتاؤهم وقد يرتجفون من
القر في الهاجرة والخريف قد تزهو أفاقه في حين تترمد المروج في الربيع ،
أخضرهم أحمر وأسودهم أبيض نهارهم مقمر وليلهم يشع بالشمس .

من هنا كان الشعر عالماً أجمل " رغم كذبه " وكان فسحة تتيح للشاعر بل
وحتى للقارئ أن يتحقق وأن يتألق حتى ولو كان الواقع خاوياً مجذباً باهتا .

وانطلاقاً من هذا فإن اللغة الشعرية تزخر بدلالات شتى وتتجاوز الخطأ
اللغوي في أحاديثه لأنه موثوق قسراً إلى مرجعيته المادية . لهذه الخصوصية وهذا
الوعد وهذه الأحلام ظلت اللغة الشعرية تفعل فعلها في النفوس ... إنما تبيح

المحال وتحرّر المحضور وتحقق المدى الأبعد وتتيح للنفس أن تحتفل وأن تغتسل
تطلب طهراً من عالم كل ما فيه قاهر محيط .

وشعر المتنبي ككل شعر أصيل يزخر بطاقات متفجرة وكان وما زال رغم كل
القراءات المناصرة والمعادية ورغم اختلاف المقاربات والمناهج حقلاً بكرّاً وعينا لا
تغيض .

ولئن ظلّ الأدب طويلاً لا يدرس لذاته بل يتخذ معبراً لقراءة أوضاع اجتماعية
ونفسية ورصد حوادث تاريخية من حروب وغزوات ونزاعات عرقية ومذهبية . فإنّ
بعض الدراسات الحديثة وعلى رأسها البنيوية التفتت " لتنصف " الأدب بمعنى أنها
لم تبق في حدود التعامل مع النصّ بصفته وثيقة تاريخية ومرآة عاكسة لأوضاع
المجتمع بل صارت تنظر إليه من حيث هو كون مخصوص له بُناه وأنسا قه الخاصة التي
تحتكم إلى منطق فنيّ فريد قد لا يكون الكاتب قصده ولكن القارئ اكتشفه على كل
حال ، ومعلوم أنه لا وجود لقراءة نموذجية وإنما تختلف القراءات باختلاف القراء
حتى غدا النصّ الأدبي شبيهاً بماسّة مشعة كلما أقبلنا عليها من زاوية إلا وباحت
لنا بألوان وأضواء جديدة لا تظهر لنا من زاوية أخرى حتى ولو كان الناظر واحد .
وما نحن سند خل النصّ المتنبي من زاوية مخصوصة لنرى فيه من المعاني ما
جدّ ومن الصور ما شدّ ومن الإبداع ما تسامى ، ولعلنا لا نخلو في هذا التصور
من وهم فقد يكون غيرنا قاله بطريقة أخرى لكن يعزينا رغم هذا كلّ اعتقادنا بأن
القراءات مهما تشابهت فإنها متباينة لأن كل قراءة هي قراءة متفردة بالضرورة .

وبالإبحار في لجّ الإبداع عند المتنبي استوقفنا ولع لدى الرجل بإبداع غريب
وهيام يملكه القول عنده : هذا القول الغائن السّاحر الذي جعل الرجل يشعر بأنّه
يمتلك العالم وله القدرة على تسخيرهِ وتشكيله حسبما يريد لا تعلو عليه شمس ولا
تتبه أمام بصره فلاة ولا يستعصي عليه برق أو غمام بل إنّ بهذا القول العجيب
يروض الكون فينصاع ويأتي المستحيل فلا يتأبى عليه .

لهذا نبأ المتنبي نبوة الجبال تتشامخ على الوهاد ونبوة النخيل يتعالى على سائر

ما تنبته الأرض فكان نبياً نبوءة شعر لا نبوءة غيب ووحى عبقر لا وحى ألهة .
 وشعر المتنبي يعجّ بوعي صاحبه بقدرة الكلمة على فعل ما لا تفعله اليد فتكا وقتلا .
 وبفضل هذه الكلمة تمكن المتنبي من التحقق في زمن كل ما فيه رديئ واستطاع
 أن يفرض نفسه وهو المجرد من الجاه والمال وجعل أصحاب الصولجان يتنافسون
 في جلبه واستقطابه وانطلاقاً من شعوره بما للكلمة من دور في الرفع من شأنه
 فإن المتنبي سخر القصيدة أي قصيدة مهما كان غرضها ليتغنى بهذه النعمة التي
 هي البيان وتفنن تصريحا وتلميحاً في التغرّل بهذه الغادة الغائنة التي أنشأها من
 نفسه حواء سبته حتى غدت شغله الشاغل . ولئن تفنن المتنبي في إضفاء مختلف
 الصفات على الكلمة فهي السلاف وهي المنوم الذي يفعل فعل السحر في النفوس
 فتخلق في غيبوبة حلوة .

إن القوافي لم تنمك وإنما

سحقتك حتى صرت ما لا يوجد

فكأنما أذنك فوق حين سمعتها

وكأنها مما سكوت المرقد

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

وهي المطية التي يعتلي صهوتها ويرحل يكتسحها سهواً وهاداً ويقحمها أغواراً
 ونجاداً فإذا بالمكان يختزل وبالزمان يقف مشدوها من عظمة هذه الكلمة .

وعندي لك الشرذ السأحرا

ت لا يختصن من الأرض داراً

قواف إذا سرن عن مقولي

وشجن الجبال وخضن البحاراً

فإن ما يشد الانتباه بصفة أجلى هو هذا التداخل بين القول والفتك ... بين فعل
 الكلمة وما يفعله السيف أو السلاح عامة فالمتنبي وعى بالقوة الماحقة التي للكلمة
 فكمن من جوانح تهكت لسماع قول . وكمن من شغاف تنقب لإيقاع وترنيمة صوت .
 بل ثبت أن طعنة السيف أو شكة الرمح ليست بأنفذ في القلوب من طعنة القول

فكم من ضربة سيف طابت والتأم الجرح منها في حين ظل جرح الكلمة مقرحاً
نزاقاً . ونحن في تونس نقول : « الجُرح يَبْرأ يا صبرة وتواتيه (تلائمه) الضميدة
وكلمة العيب تسمي وتصبح جديدة »

ونحن لا نروم في هذا المقام أن نبحت في الأسباب النفسية والاجتماعية التي
تمنع الكلام مثل هذا التأثير وتجعل النفس البشرية ضعيفة أمامه ، ولا نملك القدرة
كذلك على بيان الأسباب التي تجعل النفس أسيرة أمام اللغة الشعرية تشف وترقى
وتترنح وتنبو جداً وحنينا وتهمي دمعاً . ولكننا سنكتفي بالإشارة إلى أننا بعد أن
تأملنا النص المتنبي صار لنا كالقناعة أن صورة السيف عند الشاعر وكذا القناعة
والسنان وما حدّ وطال وأفاد القتل والفك ونزل في إطار من الشجاعة والبأس
والصهيل والركض وثوران النقع ليس يحيلنا على الواقع بصورة تقريرية فجّة . ولا
يجعلنا نكرّر ما قيل من أن المتنبي كان زيادة عن تعاطيه الأدب رجل سرج ويطول
حرب وطعان يخوض غمار الهيجاء إلى جانب سيف الدولة يدعمه بلسانه متحمساً
وهاجاً ويعمل معه السيف في حور الأعداء . ويرسم ذلك كله في قصائده ولو لا
حضوره هذه المعارك ما كان ليدع في وصف الحروب وتأجيج لهيبها في نصه .
وهكذا يصبح النص في هذه الحالة نقلاً تقريرياً وتوثيقاً لحادثة احتلت حيزها في
الواقع الموضوعي زماناً ومكاناً . وإنما ذهبنا نحن مذهباً آخر فرأينا أن صفة
الشجاعة التي ما فتى المتنبي برحيقها يختشى وبأريجها يتعطر وعلى أيقاعها يرقص
وبضيائها يتشجّح لم تكن صفة منفصلة عن صفة الأدب أو مباينة لها .

إنما الشجاعة حالة مندغمة مع الفصاحة متماهية معها حتى أن الشجاعة تخرج
بنا من ساحة القتال بمفهومها المرجعي التقليدي لتبرز لنا في فعل القول ذاته .
فيصبح الإبداع عند المتنبي .. الفكك ذاته . لا فتكا بالنسبة إلى أعدائه فقط ممّن
يضطرم سعير الحقد في صدورهم بل هو فكك فنيّ رائع .. ونصل من شعر
يغوص حدّه في الأفئدة فنترنح لذّة - مازوشية - وتغرق في دمعها ودمائها . في
هذه الحالة يصبح السيف غير منفصل عن القلم - بل هو صورة من صورة الحادّة

القاطعة - إنه القلم عندما يرغى ويزبد وعندما يتوتر ويحتد وينفث ناره تحت وطأة نفس تلتهب ولا تجد مجالا لإعلان تلك الثورة إلا في ساحة القصيدة - الوغى - بل إن السيف والرمح من حيث أنهما من قاموس السلاح يصبحان دالين على القلم من حيث هو أداة الكتابة الشعرية كما يدلان على اللسان من حيث هو أداة القول الشعري . وهكذا يتشابه السيف من حيث الشكل طولاً وحدةً ووقعا مع القلم مع اللسان ولعل أطرف ما وجدنا في هذا الصدد أبياتاً يصف فيها المتنبي القلم وهو في طقس من طقوس الكتابة . وذهب إلى اعتبار فعله كالسيف بل لعلّه أشد منه وطأةً وأنفذ وأذهب غوراً في النفس .

1 (نحيف الشدّى يعدو على أم رأسه

ويحفى فيقوى عنده حين يقطع

2) ذباب حسام منه أقوى ضريبة

وأعصى لمولاه وذا منه أطوع

ومثل هذا الاهتمام بالقلم ليس يختلف عن اهتمام فارس بسيفه أو عازف بكمانه أو نحّات بالتمثال الذي رسم وبالألوان التي أبدعت في صنع التمثال .

<http://Archivebet.Sakhrit.com>

3) يمجّ ظلاماً في نهار لسانه

ويُفهم عنّ قال ما ليس يُسمع

وفي سياق آخر يعلن المتنبي بكامل التصريح أن لسانه قد يغنيه أحياناً عن أعمال سيفه وهكذا يندغم السيف مع اللسان ليكون الفعل واحداً فَتَكَا بقطع النظر عن هذا الفتك أظاح بالرأس أم أخذ بمجامع الألباب وأراق حمياً الجوانح .

وهكذا يزداد التأكد من أن القصيدة كون فني منفصل عن الكون الحقيقي حتى ولو ظلت بعض الوشائج بينهما قائمة - ويحقق مبدأ العدول الذي تحظى به اللغة الشعرية للشاعر فسحة فيها يرتاح من رداة زمنه ويستعيز عن القهر والإلجام بحرية مطلقة ولا يهمنها في هذا المقام إذا كان المتنبي قد شارك في بعض الحروب مع سيف الدولة أم لم يشارك يكفي أن الحرب في القصيدة قد تأججت نارها وعلا

أوارها . ولو سلمنا بأن المتنبي كان يحضر كل الوقائع والمواقع . فما هو مؤكد أن الحرب في ساحة القصيدة هي أجمل وأغرب وأبعث على الدهشة ولئن كانت ساحة القتال تفرغنا بأشلائها وترعبنا بدمائها . فإن الشاعر بإبداعه يجعلنا نلتذ بما هو وحشي ونستمتع بهذه الجثث وقد مرقتها الأسنة وألقيت طعما يسيرا أنشبت فيه النسور مخالبا شاكرا للمضيف على هذه الوليمة -

يفدي أتم الطير عصراً سلاحه

نسور الفلا أحداثها والقشاعم

وما ضررها خلق بغير مخاب

وقد خلقت أسيافه والقوائم -

ولذلك ونحن نقف في محراب القصيدة فإننا لا نهتم بالموقعة من حيث هي حدث تاريخي بل من حيث هي تشكيل فني صاغته يد ماهرة فالشعر كما قال حازم القرطاجني « ليس يعد شعراً من حيث هو صدق ولا من حيث هو كذب بل من حيث هو كلام متخيل » . انطلاقاً من هذا فإننا نميل مع المذهب القائل بأن المتنبي كان يشارك ممدوحه في صفة الشجاعة يرهانهم في ذلك أنه لا يفتأ يتغنّى بالسيف والرمح والخيول والليل ويبيدي لذة عظيمة وهو يصف الحروب بأهوالها نغماً ونجيباً وجثثاً .

بل إننا لا نرى المتنبي رغم كل الصفات التي خلعها على نفسه قد تغنّى بغير صفة البيان والفصاحة والأدب : نطقاً وكتابة - لأنها شارته المميّزة وخاتم الملك عنده ومفتاح القلعة المسحورة التي يصبح بولوجها ساحراً يفتن العقول ويفتك بالقلوب ودمائها تسيل . وصفة البيان هذه ليست مفصولة عن الشجاعة . فالمتنبي إذ يصف نفسه بالهزير فإنه لا يعيد صورة تقليدية تعود الشعراء خلعها على كل بأسل مغوار إنما يقابل بينها وبين صفة الجبن التي ألحقها بمنافسيه من الشعراء الذين قرّمهم ونفاهم نفيًا رغم " فصاحتهم " .

والفصحاء لا يجسرون والسياق في القصيدة ليس يحتمل الحديث عن جسارة في الحرب . بل هي جسارة في فعل القول والإنشاد . إنها رعدة تتملكهم فتلجم

أسنة الألسن عندهم وتغلّ سيوفها فتصبح عاجزة عن القطع وعن إسالة الدّموع
الدّماء .

وأمام هذا الإرباك للملكة القول عند غيره من الشعراء يطلع هو بسحنته القويّة
وزئيره الشعريّ الذي سيهزّ الآفاق من حوالبه
لا تجسر الفصحاء تنشد ها هنا

بيتاً ولكني الهزير الباسل

وليس يكتفي المتنبي بذلك التقزيم لمن عاصره من الشعراء بل يعمد إلى الموروث
الشعري فينسفه نسفاً عن طريق تلك الجراة التي ما كانت لغيره .. وإذا به ليس
يعترف بسابق عليه بل يرى نفسه النّبع ولغيره يهب الروافد ويرى نفسه المنبّت
الصّلب وما غيره إلا فروع غضة .

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله

إذ القول قبل القائمين مقول

سيف المتنبي إذن ليس ذاك السيّف ولا رمحه ذاك الرّمح ، بل إن السيّف عنده
بقده الأهيف وبريقه الألق وصولته العنيفة وصحبته الأليفة وتصرّته الدائمة لصاحبه
هو القلم . لذلك يتداخل فعل القول عنده مع فعل الفتك وتصبح القولبة صولة
والصولة قولة .

إذا قلت لم أترك مجالا لقائل

وإذا صلت لم أترك مجالا لصائل

وتصير القصيدية في حدّ ذاتها ساحة حرب ويصبح الحبر نجيعا ويصبح وقع الجياد
وصهيلها هو أيقاع القوافي وقعقة البحور وإذا المتنبي يخرج علينا في قصيدته
جوادا صهالا وأسدّاً ضر غاما وشاعراً مجيداً وإذا أنا وأنت نسقط صرعى تحت
سذابك خيول الشعر .

يصبح الطعن إذاك بالقلم في حين تصبح الكتابة بالسيّف كتابة نازفة متوهجة

المنزع العقلي عند ابن المقفع والمعري من خلال " كيلة ودمنة " و " اللزوميات "

بقلم : الأستاذ الأزهر النقطي

يقول الجاحظ في كتاب الحيوان المكوّن من فصول نظريّة تجريدية وأخرى ميدانية تجريبية كان فيها العقل سيّد الموقف والشكّ طريقاً إلى اليقين : (فلا تذهب إلى ما تريك العين وأذهب إلى ما يريك العقل . وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم ظاهر للعقول والعقل هو الحجة .)

وفي المصنفات الأدبية عرّف العقل بأنه عقل للطبع ومنع النفس من الشهوات والنزوات وإقامة للتوازن والحكمة في السلوك والمعاملات . فالعقل مجنوب إلى ثنائية القطبين المتضادين : الخير والشر . وفي ظلال هذه العناصر ظهرت تجليات لطموح معرفي نحو التجريد واعتبر العقل نتاجاً معرفياً ومنهجياً في إبداع العلوم والمعارف - فعمامي مرتكزات المنزع العقلي عند ابن المقفع والمعري ؟

- ولماذا وقع اختيارنا عليهما ؟

- وأين تكمن نقاط الالتقاء بين تحديد ابن المقفع لمفهوم العقل وإتجاهاته وبين تجليات العقل عند أبي العلاء المعري ؟

- وعمامي أسس العقلانية المركزية التي يدعونها ابن المقفع إلى إرساء قواعدها وهل لها علاقة بأسس نظريات العقلانية الحديثة ؟

- وعمامي العوامل التي تآثر بها أبو العلاء المعري فكانت سبباً وجيهاً في إخراج اللزوميات إلى الناس ؟

- الشعر مجال لا يقتضي التنظير ، فكيف نظف بمفهوم للعقل في لزوميات أبي العلاء المعري ؟

لقد وقع إختيارنا على ابن المقفع والمعري لاختلافهما في مستوى الكتابة الأدبية فالنموذج الأول نثري والنموذج الثاني شعري ، وأيضاً بسبب الفواصل الزمنية القائمة بين التجربة الأدبية لكلا الرجلين كي تتمكن من تحديد تطوّر العقل في الأدب العربي القديم من القرن الثاني هجري إلى القرن الرابع للهجرة حين كان الأدب يتجاوز إلى حد كبير العقل الذي يغطيه اليوم مفهوم الأدب إذ كان يسع الثقافة اللغوية والتاريخية والجغرافية والأدب بصورة أدق تعبير عن الحضارة العربية الإسلامية التي أدركت نضجها في تلك الحقبة التاريخية المزدهرة في الإنتاج العلمي من طب وصيدلة وفلك وفلسفة ورياضيات وهندسة ...

مكانة ابن المقفع في الأدب العربي القديم

ابن المقفع هو همزة الوصل بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الفارسية . وقد خولت له المكانة المرموقة التي تبوأها في الأدب العربي القديم عقد مقاربة منتجة وخضبة بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الفارسي وعمل ابن المقفع على نقل كتاب " كلیلة ودمنة " الهندي الأصل من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية وساهم مساهمة فعلية في إيصال منطلقات الفكر الفارسي إلى الثقافة العربية . من مؤلفاته نذكر : كلیلة ودمنة ، الأدب الكبير ، الأدب الصغير ، رسالة الصحابة ...

والملاحظ أن موقع الريادة جعل ابن المقفع يشكل النصوص الأولى حول موضوع العقل في أسلوب تميّز بالبساطة والسهولة " السهل الممتنع " لا تخلو أنساقه الفنية من حبكة وسلاسة ولا تخلو مضامينه من تشويق وإثارة . والقارئ لمؤلفات ابن المقفع الممعن النظر في أمهات الكتب الفارسية التي كشف عنها صاحب الأدب الصغير يشعر وكأن الرجل يدعو منذ القرن الثاني للهجرة إلى إرساء أسس

وقواعد العقلانية الحديثة فهو يدعونا إلى دقة النظر والتّمييز بين الأشياء واختيار المواقف ومحاسبة النفس ونقد الذات واختيار الطريق السويّ والشجاعة والمسؤوليّة والشعور براحة الضمير والعمل على نيل السعادة في الدارين (فالعلم كالشجرة والعمل به كالثمرة)

ونحن ندرك أن الفكر العربي لم يتأسس في مناهجه وفي معارفه الخصبة الخالصة بقدر تركيزه على ذلك الاحتكاك والتلاقح المنتج بين الأصيل والدخيل . فلا يمكن للفكر أن يحيا منعزلا عن الثقافات والمعارف المحيطة به .

يقول محمود أمين العالم في مقال نشر له سنة 1991 تحت عنوان " موجة الحساسية الجديدة " : (وفي تاريخ الأدب العربي انطلاقات وإضافات بلاغية ودلالية عديدة لا يمكن فصلها عن التحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية للتاريخ العربي نفسه)

منزلة العقل في نصوص ابن المقفع الأدبية :

نزّل ابن المقفع العقل منزلة رفيعة في نصوصه الأدبية ووضح في مؤلفاته منافع استعمال العقل في معرفة الأمور والأحوال والامتناء إلى الحق والفضيلة كما اعتبر العقل مقياسا لخلق التوازن والتفريق بين ثنائية الخير والشر وذلك بالتركيز على مسعى الإنسان يقول في كيلة ودمنة ص 44 : (العقل ضرورة حياتية لازمة ولا يمكن بآية صورة من الصور الاستغناء عنه فالحياة لا تستقيم إلا بالعقل . فالعقل هو علّة الأشياء والسبب الرئيسي لتنظيم حياتنا وبه ندرك غاياتنا ونحصل على حاجاتنا ونسيطر على ما حولنا وبه نعرف الطريق الموصّل إلى النجاح والفوز فإذا نحن بحاجة إليه ضرورة الماء والهواء) .

لقد وادّ العقل في موروثنا الثقافي والأدبي ألوانا من الإبداع وخوّل تجديد مناهجه وتحديد رؤاه ، وابن المقفع حرّض الخلق في مؤلفاته على امتلاك العقل بقوله : (ينبغي للإنسان أن يسلك في الأمور بعين العقل والعقل ليس مقتصر على إنسان دون آخر وهو مشاع بين الإنسانية ولم تكن إنسانية الإنسان إلا

به ولا يمكن أن نستغني عنه ولأكثرنا في مرتبة الحيوانات ولذلك عرّف بعضهم الإنسان بأنه حيوان لاحظ وعرّفه آخرون بأنه حيوان عاقل)

على هذا الأساس ، يحيلنا ابن المقفع في مقدمة « الأدب الصغير » على بعدين أساسيين وهما : البعد المعرفي والبعد العملي الأخلاقي بقوله : (عمارة القلوب واتصالها وتشبيته أبصارها وإحياء للتذكير وإقامة للتدبير) ويتضح معنى العقل عند ابن المقفع في إستحضار مقولة أساسية من إبداع الثقافة العربية الإسلامية هي إنقسام العقل إلى قسمين : عقل صنيع وعقل ذاتي وتفسير ذلك أن العقل عند ابن المقفع عقلان :

1 - العقل الصنيع : هو تلك الملكة الموجودة في وضع الخفاء فهي ملكة مكتسبة بالقوة حاضرة حضورا لا يتحول من لحظة الفعل ولحظة الإنجاز وهي تلك الملكة المبثوثة في الناس جميعا أو ما اصطلاح على تسميته بالعقل الموجود بالقوة أو العقل غير العاقل وذلك يحرص ابن المقفع على أن لا نترك عقولنا في مستوى المادة الخام بل يحثنا على تجاوز هذه المرحلة حتى يكون لنا العقل الصنيع وهو العقل في مرحلة النضج حيث يصبح قادرا على النظر والبحث والتنقيب وحل المسائل المعقدة والمتشعبة والبحث عن الأنفع والأجدى ويصير قادرا على الاستنتاج ووضع التصورات وتقليبها على جوانب مختلفة .

2 - العقل الذاتي : هو عقل يتجاوز مرحلة الخفاء والثبات ليصبح عقلا منتجا بواسطة ما يسميه ابن المقفع بالأدب ولفظ أدب ليس بالمعنى المتعارف ولا بالمصطلح المتداول لكن لفظ أدب يفسر بمعنى التجريد والصقل والمراس والتجربة . والعقل الذاتي حسب ابن المقفع هو تلك الجوهرية في مادتها الخام فهو في مرحلته الأولى كالأرض الطيبة التي هي بحاجة إلى عناية مكثفة حتى تهبنا خيراتها . ويرى ابن المقفع ضرورة تطوير العقل الذاتي حتى يتمكن الإنسان من مجابهة الحياة ونيل سعادة الدنيا والآخرة .

على هذا الأساس ، يقترح ابن المقفع طريقتين لتطوير وتنمية العقل الذاتي حتى

يصبح عقلا صنيعا وهما : الأدب والتجارب لأن للأدب قيمة عظيمة في تطوير وتنمية العقل فالعقل لا يمكنه النمو إلا بالأدب الذي يلعب دورا أساسيا في صقل العقل ، فبالأدب يكون التأديب والتثقيف . يقول ابن المقفع في " الأدب الصغير " : (وللعقول سجايات وغرائز بها تقبل الأدب ، وبالأدب تنمو العقول وتزكو) وكذلك تجارب الماضي ونورها الفعّال في تنمية وتطوير ملكة العقل فهي والأدب توأمان لا ينفصلان بهما يمكن للإنسان أن يقول : أنا عاقل إذن أنا موجود يقول ابن المقفع في " كلياته ودمنه " ص 16 : (والعقل مكتسب بالتجارب والأدب له غريزة مكنونة في الإنسان كاملة كالنار في الحجر لا تظهر ولا يرى ضوءها حتى يقدحها قاذح وإذا قدحت ظهرت طبيعتها وكذلك العقل الكامن في الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتقوية التجارب فلا يمكن أن يكون لنا عقل ناضج بدون تجارب) وقد قال أحدهم في سياق هذا المضمار (من لم يشرب من بئر التجربة مات عطشا في صحراء الجهل) .

إنّ هذا الفصل بين حدّي العقل يحتوي على حث ضمنى للإنسان على عدم الخضوع والإستسلام والقبول بالأحكام الاعتباطية والرّضاء بالدّون كما أنّ الفصل بين حدّي العقل دعوة ملحة من ابن المقفع إلى السعي الحثيث والالتزام بالحكمة والتّبصر على هذا الأساس يكون ملكة نسبيّة قابلة للتّجدد والسيرورة وبذلك ينفي بن المقفع المنهج الثابت للعقل ، فالعقل في نظر بن المقفع متجدّد بتجديد خبرة الإنسان وقدرته على التهذيب والصقل والتأديب والتثقيف ولقد أقام ابن المقفع للعقل شروطا هي بمثابة الأرضية الضامنة لتحقيق الجدوى منها : عدم إستصغار الزّركة أو الخطأ ، الانفتاح على الرأى المخالف ، معايشرة ذوي الالباب ، رفض الوثوق في الرأى والتعصب له تفادي الهوى والنزوة في الحكم ... فالرأى والهوى ضدّان لا يتصلان . يقول ابن المقفع في " الأدب الصغير " ص 14 : (إنّ المستشار وإن كان أفضل من المستشار رأيا فهو يزداد برأيه رأيا كما تزداد النّار بالوئك ضوءا وعلى المستشار موافقة المستشار على صواب ما يرى والرّفق في تفسيخ خطأ إن أتى

به وتقليب الرأي فيما شك فيه حتى تستقيم لهما مشورتها وعلى العاقل أن لا يستصغر شيئا من الخطأ في الرأي فالأنهار تنبثق من الجدول الذي يستخف به وعلى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان وأن من شأن الناس تشريف الرأي وإسعاف الهوى)

وقد قال الشاعر قديما :

شاور سـواك إذا نابتك نائبة

يوما وإن كنت من أهل المشورات

إن الإنسان البديهي في نظر بن المقفع هو ذلك العاقل الحازم الحكيم المتفتح على الرأي المخالف ، صادق موضوعي فطن يجمع بين العلم والنظر والتحقيق لم يكابر بمعارفه وهذا الإنسان المثالي الذي دعا إليه ابن المقفع هو نموذج رجل السياسة الكفء ورجل الفكر صاحب العقل الراجح والرأي الحصيف ذو الصحيفة الصفراء وهو بعبارة أدق نموذج الإنسان العادي في مجتمع ينشد العقول من حضارة البداوة إلى حضارة المدينة ذلك لم يبحث بن المقفع في العقل باعتباره أداة معرفية فحسب بل جعله خطة إصلاح ووسيلة لضبط السلوك وقاعدة لترشيد الممارسة العملية للإنسان .

يقول بن المقفع في " كلیلة ودمنة ص 43 " : (وأفضل ما رزقهم الله تعالى ومن به عليهم العقل الذي هو الدعامة لجميع الأشياء والذي لا يقدر أحد في الدنيا على إصلاح معيشته ولا إحراز نفع ولا دفع ضرر إلا به) . على هذا الأساس ، ساهم بن المقفع في تركيز أدب نثري جديد يحتكم إلى العقل والحكمة هيكلًا ودلالة ، مبنى ومعنى وقد سلك في مجال الشعر عديد الأدباء مسلک ابن المقفع منذ القرن الثاني هجري وصولا للقرن الرابع للهجرة مع أبي العلاء المعري .

فكيف تجلّى العقل عند حكيم المعرفة مع توهج اللّوغميات ؟

ولد أبو العلاء المعري سنة 363 هجري وتوفي سنة 449 هـ اختار أبو العلاء

عزلة اضطرابية في بيته بمعرة النعمان كان خلالها رهين ثلاثة سجون :

أراني في ثلاثة من سجونى

فلا تسأل عن الخبر النبىـث

لفقد ناظرى ولزوم بيتى

وكون النفس في الجسد الخبيث

وقد دامت عزلة أبي العلاء المعري في بيته خمسين سنة دون خلالها ديوانه الشعري "سقط الزند" واللزوميات ورسالة الغفران وكذلك رسائل لغوية وذهنية ... وقد ساهمت جملة من العناصر في نحت شخصية أبي العلاء المعري وإبراز جوانبها الخفية ودفع الرجل لإخراج اللزوميات إلى الناس من بين هذه العوامل نذكر :

أ - فقدانه المبكر لحاسة البصر : (وكذلك كان العمى عنصر من عناصر النبوغ والتصوف والاستعلاء والغرور) .

ب - ثقافة المعري الدينية وصداءها في أشعاره وفي رسائله علما أن أبا العلاء من أسرة قضاة وفقهاء تمكن بفضل معرفته الواسعة بخصائص الفرق والمذاهب والملل والنحل من استثمارها في كتاباته وإبداء الرأي فيها وفي سائر الأديان السماوية . ج - زيارة المعري وهو في عتقوان الشباب إلى دير من أديرة اللاذقية بالشام ولقائه هناك براهب متفلسف كانت منطلقا لبحوثه في الأديان السماوية وشكه فيها وفي جدواها :

في اللاذقية فتنة

ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يندق

وذا بمنذنة يصيح

كل يعظم دينه

يا ليت شعري ما الصحيح ؟!

ويشكل ديوان اللزوميات الذي يتسع إلى إحدى عشر ألف بيتا من الشعر حجر

الزاوية في المنزح العقلي عند المعري حيث انصرف فيها إلى تناول مواضيع عالجت قضايا عصره كما تطرّق فيها إلى مسائل روحية وفلسفية وفكرية وما وراثية .

فما هو التوجه الشعري الذي أسسه المعري في لزومياته ؟

وما هي القيود والأنساق الفنية التي توخاها أبو العلاء في كتابة هذه المبدونة الشعرية ذات المنزح العقلي ؟

إنّ التّوجّه الشعري الذي أسسه المعري في اللّزوميات هو توجّه قائم على العقل ويتجلّى ذلك في عزوف الرّجل عن تناول الأغراض الشعريّة السائدة والمستهلكة منذ العصر الجاهلي حتى عصره وأيضاً في تركيزه على جمالية جديدة وإضافات فلسفية فكرية وما وراثية للشعر تقطع مع الجدلية القديمة التي انبنت أساساً على جزالة اللفظ ومثانة اللغة وذكر الحروب ووصف أنواتها ومشاهداتها والتركيز على النسب والرياء والغزل والمدح ونظم المعلقات ووصف الخيل واللّيل والصّحراء والخمر . وقد تمخضت عن هذا المفهوم الثاني للشعر في عصر المعري خاصية نقدية يرى المنظرون لها ومنهم أبو العلاء عذوبة الشعر في ارتباطه بالكذب (فالشعر باب من أبواب الباطل) حسب عبارة الأصمعي . غير أن أبرز قناعة عزّزت تأسيس الشعر العلاني الجديد هي مبدأ المصادقة والمقصود بالصدق في التشكيل الشعري هو خضوع العناصر الشعريّة لمقاليـد العقل لا لدفق الوجدان وحرارة العاطفة ، فالتجربة الشعرية في اللّزوميات لا تستمدّ كيانها الرّحب من الخيال المجنح بل تنهل مادتها الخام من مرجعية الواقع المعيش لأن الأدب والحياة توأمان لا ينفصلان فالأدب يتوكأ على الحياة والحياة تتوكأ على الأدب حسب مقولة ميخائيل نعيمة وبذلك حمل المعري الشعر رسالة نبيلة تنزل في دائرة البحث والتنقيب والتأمّل وتندرج ضمن سياق منظومة التنبيه والتحليل والتذكير والتدبير والحدس والاستمالة .

على هذا الأساس ، وصف المعري الشعر بصفة التأمّل وجعل موضوعه الأساسي الدّعوة إلى الحكمة والعقل . وتتجلّى هذه الدّعوة إلى العقل والحكمة

صريحة في اللزوميات إذ العقل إمام ونبي ومرشد وهو أداة معرفية أجراه المعري في شتى المعارف فكان نقيضا للنقل وحداً فاصلاً بين الحقيقة والزيف وفيصلاً بين الموروث السائد والمستهلك المروج والمفهوم العلاني الجديد للشعر .

وفي خضم النقد والشك والحيرة الواعية وقناعة التجاوز يظفر قارئ اللزوميات بثنائية تقابلية أو ضدية تقوم عليها دعوة المعري إلى العقل وهي ثنائية العقل والطبع: فالفضائل والردائل متعاديان موضوعها قائم على عنصر التجاذب بين الطبع والعقل فالطبع يدفع إلى الشرّ والرذيلة ، والعقل يدعو إلى الخير والفضيلة ، لكن النفس أمارة بالسوء نزوعة إلى الشرّ لذا تغلبت دائماً على العقل وكان نصيب العقل الفشل الذريع في محاولة إصلاح النفس وصقل الطبع :

نهانسي عقلي عن أمور كثيرة

وطبعي إليها بالفريضة جاذبي

اللبّ حارب تركيبياً يجاهده

فالعقل والطبع حتّى الموت خصمان
وهنا نقف عند ثنائية الخير والشرّ المهمة بتواترها بكثافة في كتاب " كلية ودمنة " وديوان " اللزوميات " لإقامة التوازن في سلوك المجتمع . يقول ابن المقفع في "الأدب الصغير " : (وأمارة صحّة العقل اختيار الأمور بالبصر فعليه إذا قدمت له مسائل أن يقف منها موقف المحايد وأن يتصفحها ثمّ يقع الاختيار لا على أساس الهوى لأن النفس أمارة بالسوء بل على أساس العقل) .

إنّما يمكن العثور عليه في اللزوميات من تحديد لمفهوم العقل أقلّ بكثير ممّا يطمح الباحث في أن يقف عنده لدى معايشرة عمل أدبي شعري مجنوب إلى العقل والحكمة والتأمّل ويعود ذلك إلى طبيعة المؤلف لأن مجال الشعر لا يقتضي التنظير لكننا نظفر بمفهوم للعقل مترامي الأطراف من خلال توارد مقولات كالشرّ والطبع والفريضة والجلبة والعصى والجهل والرذيلة والسوء ... وهكذا يمكن اعتبار العقل العلاني عقلاً أخلاقياً ما دامت وظيفته المركزية خدمة السلوك المجتمعي وإقامة

الأخلاق .

على هذا المستوى الوظيفي المحوري للعقل العلاني لا يشذ المعري عن قاعدة ابن المقفع في تحديده لمفهوم العقل واتجاهاته . كما يمكننا اعتبار العقل العلاني معرفيا بالاستناد إلى ما احتوت عليه اللزوميات من بحث معرفي في سياق تداول أبي العلاء عن قضايا الوجود وعن صفات الله وعن مسائل دينية كالفقه والاختيار والروح والجسد ... لكن عصر المعري المعرفي البرهاني أسفر عن معضلة فكرية قوامها عجز أبي العلاء عن إدراك الحقيقة فإذا هو يخلص من إجهاد العقل إلى أتون العقل فيغيب اليقين ولم يبق سوى الظن والحدس :

أما اليقين فلا يقين وإنما

أقصى اجتهادي أن أظن وأحدس

والملاحظ على مستوى دراسة الأنساق الفنية في ديوان اللزوميات أن صاحبها اعتمد نمطا طريفا نادر العثور عليه في الأدب العربي ويتمثل أساسا في مجيء روي القصائد على مجمل حروف المعجم بالحركات الثلاث ، الفتحة الضمة والكسرة وكذلك السكون بحيث كان أعداد الروي 112 إمكانية فعلية وسع بها الشاعر على نفسه دائرة القول واستغل الألفاظ والمفردات العربية أحسن استغلال وقد أضاف إليها حروفا زائدة على ما يلزم ، ألزم بها نفسه إلزاما وهي إضافة حرفين أو ثلاثة قبل الروي يتقيد بها في كل قصيدة حرصا منه على أن يستوفي شرطه الفني مهما تكن النتيجة ومهما يكلفه ذلك العمل من جهد وعناء وصناعة وإن ابتعد أحيانا عن الشعرية والجودة من حيث مستوى الصورة الفنية .

ولم أعرض عن اللذات إلا

لأن خيارها عنني خلسة

ولم أر في جلاس الناس خيرا

فمن لي بالنوافر إن كنت

هكذا يكون جوهر التصور العلاني زهيدا لأن المعري عكف خمسين سنة على

العقل في عقوق جعل الأدلة والحجج والبراهين مجال تفكيك وتمحيص ونظر وجدل فتحوّلت قداسة المنقول إلى قداسة المعقول وتجاوز العقل دور الخضوع والإستسلام للنقل والمراجعة والصقل وأصبح مسلّمة بديهية قائمة على التنبيه والتحليل والتفكير والتدبير والحس والتأمّل والنقد والشكّ والحيرة الواعية ومع مساهمة العقل العلاني في تثبيت دعائم الحضارة وترسيخ حدائث الفكر لكنه ظلّ موصولا بوسائل معرفيّة صوفيّة كالحس والوجدان والإيمان ، فبدأ العقل العلاني في جوهره عقلا زهديا أما مع ابن المقفع فكان عقلا أخلاقيا مرتبطا بمدار الأخلاق والممارسة العملية والسلوكيّة لمنع النفس من الشهوات والنزوات .

هوامش ومراجع :

- 1 - أبو العلاء في ما بينك وبين نفسك : الأستاذ محمود المسعدي عن مجلّة المباحث 1945.
- 2 - ملتي العقل والتراث بالمنستير يومي 4 و 5 فيفري 1994 (العقل عند المعري وابن المقفع من خلال نصوصهما الأدبيّة : الأستاذ رياض شحيد)
- 3 - الملحق الثقافي لجريدة الحرية جانفي فيفري 1994 (منتدى الباكوريا عن مساهمات الأستاذين حمودة شريف وعبد الرحمان الكيلوطي حول المنزع العقلي في كتيبة ودمنة والزوميات)
- 4 - مع أبي العلاء في سجنه دار المعارف 1981 : الأستاذ طه حسين

بقية صفحة 52

على ناصية التاريخ - وهكذا فإن المتنبّي بفعل القول القاتل والبيان المدمي والخطاب الملتدّ إلى حدّ الوجيعه يتحقّق تحقّقا ليس يوفره الموجود ويمتلئ امتلاء يغنيه عن خواء الواقع وجده - ويرتوي من نبع الشعر الذي ليس يفيض وتعطر بشذى الكلمة وبحليتها يشج فيسمو بذلك سموّا يجعله يتعالى عن أصحاب الجاه والصولجان بل إنه يسمو على كل البشر

إعداد : مسعودة بو بكر

« خست مدينة القدس ، لمكانتها المتميزة لدى الديانات السماوية ، بتسجيل تاريخها من كافة جوانبها ، فمن الجانب الفني يوجد مئات الصور للمدينة ومعالمها ، نفذت بأساليب مختلفة كالفسيفساء والمنعمات والغرافيك والفوتغراف والمجسمات .. الخ .

تتوزع هذه الأعمال الفنية على فترة زمنية طويلة ، تبدأ من القرن السادس الميلادي وشارك في إنجازها عشرات الفنانين المبدعين ، وكذلك عشرات من الذين لم يتركوا لنا أسماء هم على أعمالهم الفنية .

لقد اتسمت لوحات القدس الفنية بإظهار جمال المدينة ومعالمها بوقار واجلال بما يليق و قدسية المكان ، وبهذا نجدها متميزة عما عرف من رسوم المستشرقين وقد جاء بعض هذه الأعمال ، خير دليل للباحثين عن تطورات المدينة والتغيرات في معالمها ، لدقتها في التفاصيل بينما جاء بعضها الآخر من الخيال للدلالة على المكانة المميزة للمدينة المقدسة كاللوحه الألمانية من القرن السادس عشر التي تظهر القدس كمركز للعالم أو اللوحة الروسية والتي يظهر بوضوح أن منفذها قد قام بعمله نتيجة للوصف وليس المشاهدة انها محاولة للتعريف بمرحلة من تاريخ القدس الطويل عبر الصورة ، هذه المدينة التي هي بمثابة القلب ليس لفلسطين فحسب بل كما عبرت إحدى لوحات هذا المعرض بأنها قلب العالم .

وإضافة إلى قدسيتها المميزة ، فانها تتميز أيضا باحتوائها على كنز فريد يجمع شتى أنواع الفنون والطرز المعمارية والرسوم التشكيلية التي يعتبر بعضها انموذجاً رائداً في هذا المجال .»

نواف حامد

القدس الشريف

» يا قدس

إليك يا مدينة الصلاة .. أصلي

يا زهرة المدائن يا قدس »

تظلّ القدس زهرة المدائن رغم عواصف الدمار التي هبّت من حولها على امتداد سنيّ الوجع والاحتلال شامخة العمارة على مرّ العصور .. يدقّ التاريخ بوابتها ليزود صحائفه من أرض الأنبياء أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى خاتم المرسلين لها قدسية في قلوب المؤمنين وكلّ من اختلّف عرقه وديانته ومذهبه ...



يحدهم جميعا الخشوع .. أرض مريم العذراء والنبي عيسى عليه السلام .

» والقدس هي حضارة فلسطين التي شملتها القدسية لأنها كانت ميّقت رؤوس معظم الأنبياء ومدافنهم وموطن بثّ الدعوة للشرائع السماوية ونشر السنن الإلهية التي أيّدها الإسلام وأتمّ دعوتها وختم بها النبوة »

والقدس الشريف عبر التاريخ .

يقول القاضي مجيد الدين الحنبلي وهو من أبناء القرن السابع الهجري : إن الحدود

العرفية لبيت المقدس في أيامه كانت من القيلة مدينة (الخليل) ومن الشرق نهر الأردن ومن الشمال (نابلس) ومن الغرب إلى ما يقرب مدينة (غزة) .

>> والباحث في تاريخ القدس القديمة لا يستطيع أن يقطع بمبدأ هذا التاريخ ليعرض بالضبط كيف نشأت هذه المدينة الموهلة في القدم وكل حصيلة المؤرخين المتتبعين للأخبار هو أن هذه الأرض كانت صحراء قبل أن تسكن وتتمصّر فكان أول النازلين هم (اليبوسيون) وكانوا يسكنون الكهوف وقد ملكوا عليهم (ملكيصادق) أي سام بن نوح وهو أول من اختط مدينة (القدس) وهناك من يقول إن أول من اختطها وبناها كان حفيد (ملكيصادق) المسمى (بابلأيا) وهي إحدى أسماء مدينة القدس .

وسواء كان (ملكيصادق) أو حفيده هو الذي بنى القدس فإن المدينة منسوبة



لاليوسيين ولذلك كانت تدعى أيضا (بيبوس) واليبوسيين رهط من بطون العرب الأوائل وقد نزحوا من الجزيرة العربية مع من نزح من الكنعانيين وأغلب الظن أن هذا النزوح حدث قبل أكثر من 3000 سنة ق . م .

بنى ملوك اليبوسيين والكنعانيين أسوارا منيعة وقلعا حصينة للدفاع عنها .

سميت القدس (إيلياء) و (ييوس) و (أورشليم) أمّا تسميتها بالقدس أو بيت المقدس فهو اسم إسلامي أطلق عليها بعد دخول الإسلام وأضاف العثمانيون صفة (الشريف) فقالوا القدس الشريف .

* * *

* القدس الشريف عبر الزمان * كذلك مهر الباحث الفلسطيني نواف حامد المعرض الوثائقي الهام الذي يشمل رسومات تاريخية قديمة وأتاح بفضلها الفرصة لكل من يرغب في الرّحيل القهقري عبر التّاريخ في المدينة المقدسة ، تنبّعث أمامه بطرقاتها وعمارتها بجلالها المهيب تتشامخ قبابها ومآذنها وجرسياتها للسماء .
والسور العتيق يطوّقها يحمي عزّها وتربتها الزكيّة موطن الأنبياء فهل تنبأ الصّخر بغزو الأقدام الهمجيّة !!

هذا المعرض يشمل قسماً من رسومات نقلها نواف حامد عن الرسومات الأصلية لفنانين مستشرقين ممّن شدّهم سحر الشرق وقديسية المدينة .
هذا العمل هو مجهود سنوات بحث قام به نواف حامد الحاصل على ماجستير في تاريخ الفنون وتركز أعماله حول مدينة القدس والتراث الفلسطيني .
(المكان / المدينة العتيقة نادي الطاهر الحدّاد
الزمان / ليالي رمضان .

أول رسم للمدينة تعود للقرن السادس ميلادي
تشدّ الناظر عمارة قبة الصّخرة ، المعلم المهيم في المكان يقوم على سدس ساحة القدس . بقية الرسومات يعود تاريخها ما بين 1540 / 1980 قاسمها المشترك جلال العمارة الإسلامية خصوصاً في ساحة الحرم الشريف ، فخامة القباب ورونق الزخارف ورشاقة الأعمدة .

أبرزت اللوحات رسومات من زوايا مختلفة للمنظر العام للمدينة لباب العامود / للباب الذهبي / لقلعة المدينة للفنان دافيد روبرتسن .

لوحة للفنان وبلسن تعود لسنة 1880 لحنفية Fontaine تعود لعهد الممالك

قطابع القدس جلي بها ، رغم أنَّ الفنان من مصر .
صورة لساحة الحرم الشريف بكلّ ملامح المعمار الإسلامي ، منظر الجنوب
الغربي للحرم الشريف يعود لسنة 1855 ، صورة لخارطة ألمانية على شكل
زهرة ببنتلات ثلاث وقبلها يمثل مدينة القدس . كما لو كانت قلب الدنيا النابض . لم
لا ؟! .. وهي قبلة كلّ الديانات السماويّة .

* * * *

* المرجع :

« عرض موجز ومبسط لفلسطين والقدس » للدكتور جعفر أسد الخليلي - مجلة المنهل عدد
1984 / 431



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بقية صفحة 91

- إن والدي رجل طيب .. ما عرف الوجود قط في حياته ، لكنه سمع بقصة
الوجود في مدينتكم فخرج ليكتشف الأمر بنفسه خرج ولم يعد
- أكتب إعلان ضياع في جريدة يومية
اعترضني شرطي .. سألكه .. ضحك من سذاجتي وقال
- « يا اللي داخل مصر منك ألوف » .

* تعليق على ما حدث

أي مصير قاس سيكون مصيرنا إذا لم يكتسح العالم الطوفان ويظهرنا من
الطين الذي دنس أجسادنا وأرواحنا

جويلية 68 مارس 94

نقد :

مشاعر الأبوة والأمومة بين الحضور والغياب

في مجموعة << البحث عن ابتسامة >>

للغاص : محمد المنصور الشقحاء

* تمهيد :

هذه هي المجموعة القصصية الأولى من أعمال الكاتب المنشورة ، والطبعة التي بين يدي هي الثانية لها ، نشر « الدار السعودية للنشر والتوزيع » عام 1405 هـ . 1985 م ، تقع في 112 صفحة من القطع المتوسط (25,4 سم × 14,3 سم) ، وتتضمن عشرين قصة تحليلها رسوم لا تعرف الاسم الكامل لرأسها وإن كان التوقيع على بعضها يحمل اسم « زيدان » <http://Archive.org/details/112-page-from-the-middle-cut>

سأتناول في هذه القراءة مشاعر الأبوة والأمومة بين الحضور والغياب نظرا إلى أن أغلب قصص المجموعة تضمنت هذا الجانب أو لها علاقة به .

1 - الأبوة والأمومة حضورا :

تتحدث قصة « المرسوم » (1) عن زوجين (وأبوين) شابين استقلا بالسكنى عن والدة الزوج وإخوانه . بعض البرود يعتري علاقتهما ، يسألها عن ابنتهما ، فتجيب :

« عند أمي » (2) .

ينهمك الزوج محمد في أوراقه وتتهمك الزوجة سلوى في مطالعة مجلة قديمة بعد أن خفضت صوت التلفزيون . سمعا صوت سيارة الإسعاف (!) ، هلعت

الزوجة ، لم يتحرك محمد من مقعده . قرع الباب ، إنها ابنتهما « منال » عائدة مع بنات (خالاتها على ما يبدو) . أعلمتهما أنَّ « أنبوية غاز انفجرت » (3) بالخارج . خرج محمد ليرى الحادث ثم أوصل البنات إلى بيتهن وعاد إلى مقعده بالبيت وأمامه أوراقه ..

تبدو القصة عادية ، لا شيء يشد القارئ إليها ولعله هنا يبدو إبداع الكاتب في التقاط التفاصيل الصغيرة التي تبدو غير ذات أهمية فيبني منها نصا قصصيا . قد تكون الأمومة رمزا فأرض فلسطين أم (وعرض وكرامة) يستشهد أبناؤها من أجلها كما في قصة « أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية » (4).

جاءت هذه القصة على لسان فتاة فلسطينية (ستصبح أما فيما بعد) ، تذكر أنه جاء اللاجئين أمل العودة . مر عام وهم يستعدون لذلك دون جدوى .. تعبت من طول الانتظار والجوع يمزق الأحشاء .. عاد الرجال يحلمون « ابن جارتنا العمياء وقد فارقت الحياة وبسمة لونها الألم فوق فمه الصغير » (5) ، ثم يستشهد أخوها الصغير « صبحي » الذي كان يخاضع بائع البرتقال في الصباح صار خافيه :

ARCHIVE

http://Archivebeta.Sakhril.com

— « لماذا لا تنضم إلى الفدائيين ؟ » (6).

عاد أخوها في آخر الليل محمولا فدغنه الرجال عند سفح الجبل : « كان صبحي قد تخطى الأسلاك الشائكة فإذا بقميصه يعرقل خطاه وتخترق صدره رصاصات الغدر والخسة والنذالة والإجرام » (7) .

ويستمر الكاتب في سرد التفاصيل اليومية لحياة المخيم على لسان الفتاة : الأم يكتنم أنفاسها الربو ، الأب كالمجنون يهتمهم بكلمات لا تفهم وأختها الصغيرة (سماح) تبتسم للجميع لأنها طفلة لا تفهم والجنين يتحرك في أحشائها (أحشاء الفتاة الراوية) ، هل يرى أباه « منصورا » الذي هب لتحرير الوطن ؟!

و« الجارة سلوى لم تعد أمس من صنبور المياه » (8) ، أمها تبكي بحرقة وكم مرة حاولت إحراق الخيمة لو لا مسارعة الراوية لمنعها عن ذلك .. الجنين يدفع

الراوية إلى القيء وأحشاؤها تسبقها إلى كل ناحية : « الليل ساعاته طويلة ... أه ما هذا الألم ؟ » (9) .. وتضع مولودا ويحضر أبوه « منصور » ، كانت فرحة كبيرة . تقول : « تلاقت العيون في عناق طويل .. قرب طفلي مني : — قبله » (10)

ثم تابع : « إنه عودة . نعم سوف يكمل طريق العودة » (11) .. وتقع معركة ضد العدو .. « الطائرات تلقي الحمم .. رحماك يا رب إنني بانسة .. إلهي لا شيء بيدي .. وأمسك بيد سماح ، أحمل عودة . أجري وراء أبي الأعلى ، لقد سلب البكاء من عينيه النظر .. الصراخ يرتفع ، إلهي أين أبي ؟ ... » (12) ويعلن راديو العدو فيما بعد أنهم قاموا « بحملة تأديبية ضد أوكار المخربين (المخيم) وتم القبض على مجموعة يرأسها الشيخ عرب .. يا للمجرمين ! إنه أبي الأعلى المتداعي .. » (13).

ويرحل اللاجئين إلى جهة أخرى وتودع ابنها « عودة » بملجأ للأيتام قاتلة : « سوف تنسيني الأيام والهجوم والمتاعب التفكير فيه .. » (14) . وتتابع وهي تغادر المخيم :

« المطر ينهمر ، إلهي ما كل هذا ؟ أطلقت صفارة الإنذار .. أظن خطأ . ما سمعنا ليس سوى لغم أرضي أعداه الغدائيون .. إنه بقايا لغم 47 ، لا من ألفام 76 الجادة الحاقدة التي تزرع الموت في كل زاوية .. ارتجت له الديار الفلسطينية ، سمع صدها المغرب العربي ، ثارت لأجله أمواج الخليج العربي » (15) .

تلوي الفتاة خيمة تضم عجوزا وابنها المريض الذي يجهد بالبكاء كل لحظة لفقدته المقدرة على المشاركة في الجهاد المقدس في سبيل تحرير الوطن .. استشهد زوجها « منصور » ، (أبو عودة) .. وتمضي العجوز لجلب ابنها « عودة » من الملجأ ..

قد يبدو موقف الأم قاسيا وهي تترك ابنها بالملجأ ، لكن الكاتب سماه « عودة » وهو ليس ابنها فقط بل رمز وأمل جميع الفلسطينيين وكل العرب الأحرار في

العالم .

تبدو مدلولات الأسماء واضحة : فاسم الابن « عودة » والاب « منصور »
وجده « عرب » ، ابن العجوز العاجز ، الأخ الشهيد « صبحي » .

ونرى في قصة « المنحوسة وتذكرة سفر إلى القدس » (16) عجوزا تتولى
رعاية صبي والداه ضحية قصف طائرات العدو ..

جاءت صحيفة أجنبية تسأل أطفال المخيم : « هل يحبون الحرب وماذا يتمتعون كل
واحد منهم : سيفاً أم بندقية ، أم دبابة ، أم وردة وقلما وقرطاسا ؟؟ » (17) .

وحين تسأل صبيا ترافقه عجوز ، يتفجر باكيا ، تسألها :

« لماذا ؟ » فتجيبها العجوز :

« ————— ألا تعلمين ؟ إن الطائرات كانت هنا .. ولم يبق من أسرته أحد .. »
(18) .

تستغرب الصحفية (!) فتقحمها العجوز :

« ————— أجل أنت لست صحفية ؟! كيف نحن سكان المخيم المحتاجين لقطعة رغيف
، نعلم وأنت لا تدرين ؟! رغم وجود الراديو معك وبإستطاعتك اقتناء الصحف
والمجلات .. » (19) .

تتأسف الصحفية فتجيبها العجوز :

« ————— وماذا يفيد الأسف ؟! أنت أسفة لأنك لا تهتمين بالآخرين لكن ماذا يجري
مع الآخرين أولئك الذين لا هم لهم سوى إبادتنا نحن ؟ » (20) .

وحدثتنا كيف عبرت الجسر مع غيرها نحو المنفى وبنادق العدو مصوية إلى
صنوبرهم ، ودموعها انحبست في كبرياء ثم أضافت : « كلنا نبحث عن خيمة
وسعيد الحظ من كان أحد أفراد أسرته يعمل في الكويت أو السعودية أو ليبيا أو
حتى في البرازيل » (21) .

ومضت العجوز مع الطفل ..

سمعت من يقول عنها إنها « منحوسة » (!) و « .. نحسها سوف يلاحق

الصبي .. كلّ المجموعة التي حضرت معها ماتوا وبقيت هي . وذلك الصبي يجب انتزاعه منها قبل أن تأتي الطائرات .. » (22) .

شعر الراوي بطعنة ، أهذه إحدى الصور التي يريد العدو إلصاقها بنا وفرضها على العالم بأننا أمة ضعيفة قليلة الفعل تؤمن بالخرافات وتركن إلى كل صور العجز (؟) « إنها صورة من الصور المفروضة على أمتنا والتي يريد العالم تكرارها ويجد فيها شيئا ما لإزجاء الوقت » (23) .

ثم يصف وفود السياح : « كانوا يتسكعون على الأرصفة .. وتحت ظلال المسجد الأقصى . كل ما عليكم هو شراء تذكرة سفر إلى القدس ، إلى أورشليم .. لمشاهدة بعلبك ومدائن صالح .. فحاضرة الغرب تتسكع هنا . والمنائر لازالت قائمة ممشوقة في عنان السماء » (24).

ويذكر أن العجوز والطفل « ابتعدا رويدا رويدا وسرعان ما ابتلعهما المعسكر » (25) .

قبل ذلك ، قال الصبي :
« ——— إني تعب يا جدتي ! .. » (26)
ف« ——— صدمته بصمتها فلم يقل شيئا » (27) . يجب عليه أن يتغلب على تعبهِ ويتجاوز حزنه .

تبنو شخصية العجوز (الأم) قوية بصبرها وتحديها العدو ورعاية هذا الطفل اليتيم . لعلها تجسد الأرض بعمقها وصبرها وتاريخها الطويل ورفضها كل دخیل والصبي يرمز إلى المستقبل الذي نشأ على الأسى واليتم والتشرد والهلع والدموع وسيشرب مختزنا رعوذا تغتلك بالغاصبين .

في هذه القصة إدانة للغرب وإعلامه وكشف بعض صور معاناة أبناء فلسطين وفيها احتجاج على من يرينون وصمنا بالتخلف والعجز والإيمان بالخرافات .

ونرى في قصة « الأخوات الثلاث » (28) الفتاة الصغيرة « نورة » تذكر صاحب المكتبة بابنته « حصة » ، جاء ته لشراء قصة « الأخوات الثلاث »

لأختها الكبيرة التي لم تعد تستطيع الذهاب معها إلى المدرسة . سلمته قروشها القليلة التي لا تكفي ثمنًا للقصة ، لكن صاحب المكتبة لن يرحبها ويسمح لها بأخذها .. وقد « عصفت في نفسه أحزان فهيجت كربه » (29) فـ«يستعيد تلك الحادثة التي أودت بوحيدته حصّة » (30) .

وحين خرجت « نورة » إلى الشارع فرحة بالقصة عائدة إلى المنزل « داهمتها سيارة « قلاب » مسرعة » (31) .. ويأتيه شقيقها ويعيد إليه القصة ويعلمه بالحدث ..

يتجلى عبر هذه القصة إحساس الكاتب العميق بالطفولة وعطفه عليها ، فعبّر مشاهد بسيطة يقدم لنا مشاعر مرهقة رقيقة حد الوجد ، ويبرز موقفه عبر سلوك صاحب المكتبة نحو « نورة » التي ذكرته بابنته « حصّة » إضافة إلى اسم « نورة » وهو اسم موح (أليس العلم نورا ؟) وتركيزه على تعلقها بالقصة (الكتاب) أي حبها العلم سبيلنا للخروج من التخلف .

وفي قصة « نورة » (32) نرى بنية أخرى اسمها « نورة » أيضا تروح ضحية حادث مرور إذ صدمتها « سيارة مجنونة » عند خروجها من المدرسة .. أتحدث هذان القستان عن الطفولة المفتالة أم عن مخاطر حوادث السير إضافة إلى مشاعر الأبوة ؟

نلاحظ بالمناسبة أن عديد الشخصيات المؤنثة لقصص المجموعة تحمل نفس الاسم ، فقد تكرر اسم « نورة » : 3مرات ، « سلوى » : 3 مرّات ، « حصّة » : مرتين..

ب - الأبوة والأمومة بين الحضور والغياب :

يتجلى هذا الحضور الغياب في قصة « المفترق العاق » (33) ، هامي المدرسة « حصّة » بالفصل أمام طالباتها تستعيد مراحل حياتها .. تأمر الطالبة « نجاة » بمواصلة قراءة نص يتعلق بالأم :

(يا بهجة القلب ، يا منبع الحب والعطف يا أمي .. خففت آلامي ، وأسعدت أيامي

بالحب يا أمي ، بالروح أفديك (34) .

إن إيراد الكاتب هذا النص مقصود - في رأيي - لإبراز حرمان المدرسة « حصة » من عطف الأبوة والأمومة وهي طفلة كما سيتبين ذلك لاحقاً .

سألتهن عن أبائهن .. جميعهن لهن آباء وأمهات أما هي فلا أب لها ولا أم (!) أبوها مزواج ، وأما اكتفت بتجربة واحدة في الزواج لتكون عالة على أسرتها بعد أن تركتها لدى والدها . لأبيها جحفل جرار من الأبناء والبنات وأما لم تسلم من ألسنة السوء .

تعلمت حصة وصارت مدرسة متجاوزة ظروفها الصعبة . تسمع صوتاً يلاحقها :
« أنت .. عاقبة !! » (35).

فترد وهي واقفة إلى النافذة ملتفتة إلى الطالبات :
« — إنه هو العاق .. ! »

وأجابت الطالبات في صوت واحد :

« — نعم يا «أبله» .. نعم يا «أبله» » (36) .

أ يكون والدها هو «العاق» لأنه لم يورع أبناءه (ومن بينهم حصة) رعاية كافية ولم يوفر لهم جواً أسرياً تكتنفه السعادة بين الأبوين ؟
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ثم نصل إلى قصة « البحث عن ابتسامه » (37) التي تحمل المجموعة عنوانها والتي تبرز حرمان الفتاة « سلوى » من حنان أبويها وأثر ذلك في تكوين شخصيتها .

يستهل الكاتب القصة على لسان هذه الفتاة : « لتنهر كل المبادئ وليعم الدمار العالم ، لترحل الكلمات الطيبة في قارب صغير يجرفه التيار إلى أعماق البحر » (38).

ثم تتابع : « أنا حاقدة لأنني منبوذة ، كلهم رأوا في شبح الجريمة وحقد البشرية جمعاء رغم أنني لم أقترف ذنباً يذكر » (39) .

تذكر أن أمها كانت أصرت على أن تقيم (ابنتها « سلوى ») بمدرسة

داخلية (!) فوافق أبوها على ذلك ..

ماتت أمها فحضرت لتراها قبل مواراتها التراب . رأت أباهما منهارا فانفردت تبكي .. دفنت الأم وعادت البنت إلى مدرستها .. ثم مات أبوها .

حاول بعض الأقارب إلصاق تهمة الجنون بها إذ اتهمت منذ الصبا بخنق أخيها الصغير بحبل وهي تقول إنها وجدت الحبل ملفوفا حول رقبتها فحاولت فكه .. رأتها أمها وبقية الأسرة فاتهموها بالجنون .

قالت لها المشرفة على المدرسة :

« ————— لقد اتهمك الجميع بأنك خنقت أخاك بسبب غيرتك منه لأن الجميع يهتمون به » (40) .

أفي هذا إشارة إلى خطر وضرر تفضيل بعض الأبناء على الآخرين ؟!

تسللت من مدرستها ليلا بعد وفاة والدها وقصدت منزل أبيها ..

جاءت سيارة الشرطة وجاء أعمامها الثلاثة وعمااتها . كان هدف أقاربها الاستيلاء على الميراث نظرا إلى أن البنت الوحيدة (سلوى) متهممة بالجنون . تطالب سلوى بفك الحجز على ممتلكات الأسرة . يعترض أحمد أصغر أعمامها بدعوى أنها مجنونة .. يواجه الضابط :

« — وما هي علاقتك بوالدة سلوى الحقيقية .. ؟!

وجحظت عينها العم أحمد عند سماعه لهذا السؤال . وأخذ يرتعش عندما لوح الشرطي بدفتر مذكرات والدتي » (41) .

.. تسلمت سلوى كل الميراث ، لكن الحقد بأعماقها ظل كامنا .

لقد بين الكاتب تقصير أبويها نحوها كما أبرز الطفولة المطعونة وحقد الفتاة « سلوى » على من اتهمها بالجنون وحاول إقصاءها عن دنيا العقلاء وحرمانها من الميراث ومن حياة طبيعية ، كما تتضمن القصة دعوة غير مباشرة للآباء لمعاملة أبنائهم دون ميز .

وفي قصة « ذات يوم » (42) يلتقي الراوي برفيقه في المقهى .. يفاجئهم

مطر ، يفر بعض الحرفاء وسط ضحكهم . ينقطع المطر ، يسأل رفيقيه عن أبيهما رغم أنه يعرفهما جيدا (١) .. يملون المكوث بالمقهى ، فيخرجون للتفسيح .. يقول الراوي بعد ذلك : >> واجهني سؤالي :

— وأنت هل تعرف أباك ؟! >> (43)

.. أبوه كان مغامرا ، مات وهو (أي الراوي) في الثانية من عمره .. رفيقاه موظفان مثله ومرتبهما محدود مثله ، لكنهما يميزانه بكونهما >> يعرفان أباهما أما أنا فكل معرفتي هي حكايات معاصريه لا غير >> (44) .
أفي هذه القصة إشارة إلى معاناة البعض بسبب الحرمان من الأبوين أو من أحدهما وأن ذلك يظل جرحا نازفا في أعماق النفس ؟

ج - البحث عن الأبوة والأمومة :

نرى في قصة >> إنه ولد >> (45) ، تعلق الآباء بالأطفال دليل استمرار الحياة البشرية بنصفها (الذكر والأنثى) ، فهذان زوجان (أم فاطمة وأبو محمد) ينتظران مولودا ذكرا بعد سبع بنات وتكون الفاجعة حين يجيء المولود ميتا ، تقول له الطبيبة :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

>> — البقية في حياتك ، لقد نزل الولد ميتا >> (46) .

فيرد متعجبا :

— ولد ؟ .. و .. ميت ؟! >> (47) .

ونرى في قصة >> عندما فات الوقت >> (48) واجب الأبوة يدعو >> صالحا >> إلى احتضان ابنه بعد موت أمه ، فصالح شاب >> أعرض >> عن الزواج من بنات المدينة فتزوج قريبة له من البادية بعد أن قصد مكان الأقارب رفقة خاله وابن خاله فتزوجوا جميعا من هناك .. بعد مدة طلق الخال زوجته إذ لاحظ في سلوكها ما يعيب وأشار على ابنه بالفعل نفسه لأنهما كانا تزوجا أختين ..

تسرب الشك إلى صالح فظل محتارا ، طلب إجازة وحمل زوجته إلى أهلها وذهب للعمل بمكان بعيد .. ثم انتدب للعمل خارج البلاد .. ويعود إلى الوطن ويعلم

عبر رسالة من أهل زوجته أنها توفيت وتركت له ابناً (عبد الله) وهو بانتظاره ..
ونرى في قصة « النجوم تقدم العزاء » (49) سعي الزوج « عبد الله »
لإنجاب ولد . يتزوج « مريم » وهي ليست غريبة عنه ، يقول : « كانت رفيقة
طفولتي ومرحلة صباي ، وانتقلنا إلى العاصمة ، أما هي فقد بقيت مع أسرتها
بالطائف » (50) . والد عبد الله غني وقد تكفل بمصاريف زواج « ابنه المحبوب
الذي لا يريد منه سوى أن يكون مساعده في إدارة الشركة بدلا من التجوال في
أزقة وشوارع المدينة مع أصدقاء السوء وقضاء الوقت في أشياء لا تفيده »
(51) .. ويتم إجهاض الزوجة حتى تكمل دراستها وينعما بالسعادة قبل « دوشة
الأولاد » (52) .

ثم انصرف عبد الله إلى العمل والاهتمام بشركة والده ، . ها هو الآن « يريد
ولدا » (53) ، ولم تنجب مريم « رغم كل التحاليل التي تفيد بأنهما قابلان
للإنجاب » (54) .

وتزوج ثانية طمعا في الإنجاب وقضب مريم وتعود إلى بيت والدها .. ويتزوج
ثالثة ورابعة بلا فائدة...
ويتعرف على امرأة أجنبية اسمها « فاطمة » تمثل عليه مسرحية مكتملة
الفصول .. توهمه بأنها حامل منه وأنها عادت إلى بلدها وأجهضت وعلم زوجها
فطلقها .. فيتزوجها عبد الله ، ولم يأت الولد ، فيطلقها « مع تعويض ضخم أمن
لها حياتها » (55) .

ها هو ينطلق إلى الصحراء بعد أن حدث أصحابه بقصته .. « السماء صافية
والنجوم تتلألأ رغم أنها ليلة شتاء قارس بينما الراديو ينقل أغنية جديدة » (56).
نرى أن الدافع للإنجاب (وربما الرغبة في أن يعيش إحساس الأبوة واحتضان
الطفولة) هو الذي جعل عبد الله يقع في سلسلة هذه الحوادث المتعاقبة .
ويتواصل اهتمام الكاتب بمشاعر الأبوة والأمومة في قصة « الهندية » (57).
فهذه فتاة جاءت من الهند مع أهلها بقصد الحج وزيارة المدينة المنورة ولكن كل

شيء تغير بعد الوصول .. يتشتت أفراد أسرتها .. تعمل لدى إحدى الأسر وتسكن مع عجوز وابنها .. يتم إغواؤها من قبل أحد الشبان ... وتتزوج ابن العجوز التي كانت تقيم عندها ..

ها هي تطوف الأحياء تباع زجاجات عطور ، إنها « طويلة نحيلة تحمل صندوق العطور فوق رأسها ، لا صدر لها ، تمشي معتدلة القامة . ولكن وراءها ثلاثة أطفال .. » (58) .

ويعود الشاب الذي أغواها من الرياض فتخبره « الهندية » بأن ابنتها الكبرى منه فيرفض أبوته للبنات ويفادر المدينة ..

**** الخاتمة :**

تبرز الأبوة والأمومة (وكذلك الطفولة) في هذه المجموعة بجلاء عبر صور ومشاهد ذكريات شخوص القصص ، عبر لحظات وجع نتيجة حرمان بعض الصغار والكبار من هذه المشاعر ، والكاتب يرفض أن تنتهك طفولة بعض الصبية كما في قصة « البحث عن ابتسامة » (59) ، ولعلها ابتسامة يريدها الكاتب على شفاه كل الطفولة المذبذبة الشريفة كما في قصة « المنحوسة وتذكرة سفر إلى القدس » (60) ، وعلى شفاه الآباء والأمهات وكل من حرماو نعمة إنجاب الأطفال (كما في قصة « النجوم تقدم العزاء » (61) أو دفء تربيتهن (كما في قصة « الأخوات الثلاث » (62) ، وإحساس الكاتب بهذه المشاعر عميق وهو حريص على المحافظة عليها وتنميتها كما يتجلى حبه الطفولة وسعيه إلى إبراز كل الصور المشرقة عنها براءة وكفاحا والمعتمة عبر ما يسلط عليها من حيف (كمعاناة أطفال شعب فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني وبعض الأطفال في بعض الأسر ..) .

**** المصدر :**

(1) قصة « المرسوم » صفحة 39

(2) * * * من 40

- (3) قصة « المرسوم » صفحة 42
- (4) أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية ص 31
- (5) * * * * * ص 31
- (6) أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية ص 32
- (8) * * * * * ص 33
- (9) و (10) و (11) * * * * * ص 34
- (12) و (13) و (14) و (15) * * * * * ص 35
- (16) المنحوسة وتذكرة سفر إلى القدس ص 5
- (17) * * * * * ص 5
- (18) و (19) و (20) * * * * * ص 6
- (21) * * * * * ص 7 و 8
- (22) و (23) المنحوسة وتذكرة سفر إلى القدس ص 7
- (24) و (25) و (26) و (27) * * * * * ص 8
- (28) الأخوات الثلاث ص 9
- (29) و (30) و (31) * * * * * ص 11
- (32) نورة ص 19
- (33) المفترق العاق ص 57
- (34) * * * * * ص 58
- (35) المفترق العاق ص 60
- (36) * * * * * ص 61
- (37) البحث عن ابتسامة ص 77
- (38) و (39) * * * * * ص 77
- (40) البحث عن ابتسامة ص 80
- (41) * * * * * ص 86
- (42) ذات يوم ص 67
- (43) * * * * * ص 69
- (44) * * * * * ص 70
- (45) إنه ولد ص 13
- (46) و (47) إنه ولد ص 18
- (48) عندما فات الوقت ص 63
- (49) النجوم تقدم العزاء ص 101
- (50) و (51) و (52) * * * * * ص 106
- (53) و (54) * * * * * ص 103
- (55) و (56) * * * * * ص 105
- (57) الهندية ص 23
- (58) الهندية ص 26 و 27
- (59) البحث عن ابتسامة ص 77
- (60) المنحوسة وتذكرة سفر إلى القدس ص 5
- (61) النجوم تقدم العزاء ص 101
- (62) الأخوات الثلاث ص 9

إلى اللقاء

السَّعِيدِي المنصوري

نامي بنفسجة الروابي

على أشهى ثرى

نامي . . .

يا لبوة الغاب

قرنقلة المساء -

حوريه الأحلام

حبيبتني نامي -

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

سأسأل المساءات عن خبزك

عن فرح اليتامى

عن التَّنَّور -

عن عطرِكَ -

عن البخوز ورائحة الخزامى

حوريَّة الأحلام

حبيبتني نامي -

سأسأل الصَّبَاحات عن صلاة الأتقياء -

عن طحين القمح / جلجلة الرُحى -

عن تراتيل ميلاد النّبيء . . .

نامى على أشهى ثرى

فشمسك لم تغرب

حوريّة الأحلام

حبيبتى نامى -

بأيّ دمة أرثى بهاك والرّضى -

بأيّ لحن أعزف وصلة حزن للمدى -

فلا الياسمين من بعدك هو الياسمين

ولا الرّيحان بعدك مرّ من هنا -

بأيّ حسرة أودّعك الآن دون لقاء ! . . .

حوريّة الأحلام

حبيبتى نامى -

القصرين 1994

شعر : محمد الفياض طاع الله

«الإهداء إلى * السفينة * أفريتى وحبيبتى مهما قَنَجَتْ ... »

أفري جيزان (2) قد قرَّ القرار
وظلَّ القلب مخطوف الأمانى
قرير العين كنت بلا خطايا
فكم أنشدت شعرا الحيارى
وكم أججت ليل العاشقين
وكم أقبلت في له علي
وبين النبع الكرم انتشينا
جنىت الشهد من عيشك خلصنا
يؤسِّن في العتاب إذا التقينا
ألا عب شعركنا الليالي حيننا
وأحيانا أرانا (ي) بلا صواب
إذا ما الكأس لأحت في يديها
على الغُثَّاء سيل من نداها (3)
ويغفوا الخافق المذموم لفرأ
وسألهما عن الميعاد مغزى
فتقسما العظم بيا نيهاري
إذا رق الحبيب خبَّ التباغي

وبان الأمل واخفت الديار
وحيد الأيـز زور ولا يُزار
وأخطأ هي الدنيا أئدار
وكم أشجيت من نفس تغار
إلى أن يطفئ الليل النهار
واغرقتنا الليالينا القصار
وفي العلياء كان لنا مسار
ووثقتنا كماله هو الصغار
ويُسكِّرني الرضاب ولا خيار
فتلهبني من الأنفاس نار
كموج البحر ليس له القرار
أصاب الكأس من فيها عثار
إذا غنَّجت أمَّاج دمي انكسار
إذا طافت مغفاتها الغزار
إذا دارت جمجمتي السدوار
بان القلب من دوني قفار
تهوى العقود وارتعش السوار

وتَهْتَفُكَ الْغُرَيْقُ إِذَا تَدَاعَى
وَتَبْتَغِ كَالْوَلِيدِ عَلَى ذِرَاعِي
يَغِيضُ بِنَا الْقَرِيضُ عَلَى يِرَاعِي
لَهْوَتُ وَمَا خَشِيتُ يَدَ الزَّمَانِ
وَيَمُضِي اللَّيْلُ وَالْمَلَأَحُ سَارِجُ
وَطَارَ الْحَلَمُ أَسْرَعَ مِنْ بَرِيقِ
أُبْنَتِ الدَّهْرِ هَلْ أَغْرَاكَ قَتْلِي
كَأَنَّ الطَّيْرَ تَحْسُومُ مِنْ شَجُونِي
وَلَمْ أَجْنِ مِنَ الدُّنْيَا نَجْةً
وَلَمْ أَعْرِفْ كَقَاتِلَتِي جُنَاةً
وَيُشْجِي خَافِقِي طَيْفُ الْخَلِيلِ
أَتِيَهُ مَعَ الْغَمَامِ بِلَادِ لَيْلِ
وَيُهْجِرُنِي الْكَرَى فِي الْبُعْدِ لَيْلًا
دَمْعُ الْقَلْبِ تَنْكَأُ كُلَّ جِرْحِ
وَتَشْعَلُنِي الصَّبَابُ قَوْلَ الظَّنُونِ
وَيَأْخُذُنِي الرَّحِيلُ إِلَى زَمَانِ

فِي شَتْلٍ مِنَ الْوَهْجِ الصَّدَارُ
فِي نَقْطِ التَّعْطُفِ وَالْحَوَارِ
وَتَهْذِي مِنْ مَعَاتِنِهَا الْبِحَارِ
تُرْوَعُنِي إِذَا شَطَّ الْمَزَارُ (4)
عَلَى قَمَرٍ يُرْقُ قَمَرُ الْمَدَارِ
وَضَاعَ الْعَمَرُ وَاشْتَدَّ الْحَصَارُ
وَهَلْ هَانَتْ مَدَامِعُنَا الْحِرَارُ (5)
فَمَا أَشْجَتْ وَلَا غَنَى الْهَزَارُ (6)
فَمَذُوحُ حَبِيبَتِ جَنْبِي الصُّغَارِ
وَفِي غَدْرِ اللَّئِيمِ لَهْفُ الْفَتَارِ
وَيَسْكُنُ فِي الْيَقِينِ لَهُ سَعَارُ
أَنَا الْحَيْرَانُ وَهَوَايَ حَارُ
أَعَذُّبُ الدَّمْعِ لَهَا أَنْفَجَارُ
وَبِالنَّفْسِ لِلْعَذِيبِ نَكْسَارُ
وَيَخْلَعُنِي التَّهْدِيءُ بِوَلَوْ قَارُ
وَيُدْفَعُنِي مِنَ الْحُجْزِ اقْتِدَارُ

جيزان - المملكة العربية السعودية

- 1 - السفينة : إحدى قرى الشمال الغربي التونسي وهي قرية رومانية المنشأ وكانت تسمى " أوزايا
- 2 - جيزان أو جازان مدينة ساحلية تقع جنوب غربي المملكة العربية السعودية .
- 3 - العناب : واحدته عنابة . فاكهة من فصيلة التوتيات وأجوده الأحمر الطور ، والمقصود به شغتها الحبيبة .
- 4 - شَطَّ الْمَزَار : بَعُدَ مَزَارُ الْحَبِيبِ
- 5 - الْحِرَارُ : جَمْعُ حِرَاكٍ وَحَرَى ، الْعَطَاشُ .
- 6 - أَشْجَتْ : اطْرَبَتْ .



إعترافات لها بعد رحيلها

الإهداء : إلى التي رحلت ولم تعلم بأن رحيلها كان نهاية حلم ...

إلى مؤزاً مع إنتحاري .

... وتمرّ الأيام اليوم على صدر اليوم ... وتندثر الأحلام الحلم يدثره الحلم ...
وتتعاقب الأعوام العام يعقبه العام .

تمرّ الأيام فلا نعباً بمرورها وتندثر الأحلام فننسأها عند اليقظة وتمضي الأعوام
فلا تبقى منها سوى الذكرى ... كل شيء يمضي بهدوء نحو نهايته لكن الذكريات
تبقى عالقة بالبال وحاضرة بالذاكرة في كل لحظة من لحظات العمر ...
تمضي اللحظات وتمرّ الأيام وتطلع الشمس مع مطلع كل يوم جديد من أيام
الصيف الحاره ... تطلعا الشمس وتتساقب حرارتها على الكون ولكننا نشكي من
حرها الحارق وتتوارى عليها من الجدار إلى الجدار ...
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ها أن الشمس ترحل وها أن الشتاء يطرق أبوابنا من بدء فتتفرق كل الدروب
ويبكي أذار على نوافذنا وتشتعل المواقد من جديد وتعود الجدة العجوز إلى
حكاياتها وخرافاتها الغارقة في الأسطورة والقدم .

ها أنك يا مؤزاً ترحلين ووحده فقط من إخترت الرحيل ووحده تملكين الخيار
وحق القرار ...

ها أنك تحملين حقائب السفر ومراكب البحر هناك راسية على الرصيف تنتظر
ساعة السفر ...

ترحلين يا مؤزاً وتغلق أبواب المدينة وتستقبل متاريسها من جديد وتسكن كل
الأزقة والشوارع .

تسافرين وتبقى الأحلام حلوة ، رائحة تداعيني ما بين اللحظة واللحظة ووحدني
أسهر ليلاً أناجي الذكرى ومعني يسهر المصباح والأقداح وبعض الذكريات التي
أعيشها على أوهامها حَقَباً من الزمن الجميل ...

تسافرين يا مورا ويأتي علينا التناهي ويجنّ علينا الفراق وتتفق فينا غريبان البين
ونبات كل بعيداً عن الآخر ...

ليلاً تأويني الغرفة المظلمة ويغمرنني الظلام فتداعى إلى ذكريات طويلة عذبة عن
كل تلك الأيام التي كانت ... ليلاً أسافر لك ألف مرّة وقبل السفر أجلس لك ، أجالس
طيفك وأسأله عن الزمن الماضي ... أسأله عن الأمسيات الجميلة ... عن الأحاديث
الطوله وعن بعض أحلام الطفولة وعن أشياء وأشياء ..

ليلاً : أجلس إلى طاولتي وأتأمل الماضي وأيامك ... أتأمل أيامك يا عميقة العينين
فتبدولي حاملة ... رائحة ومجنونة كتلك اللحظات التي كنّا معاً عشقاً ... أتأملك جيداً
فلا أجد فيك سوى امرأة أبحث عنها من ألف عام ،

ليلاً ، أبحث عنك في كل الدروب وأتبع معك في كل الثنايا وأتسكع جنبك في كل
الازقة والشوارع وأفر أخيراً من طيفك ولكنّه يلاحقني حتى هناك في حانات المدينة
ومقاهيها ...

ليلة العينين : سواد عينيك كان عليّ أشدّ من هذا الظلام ومع ذلك سافرت
فيهما بلا خوف ولا جزع ... ليلاً أجلس لك أسألك عن الزمن الرديء وعن أزهار
البنفسج الذابلة في فصل الربيع وعن ورود الجنان التي أصبحت تغار عليك من
الجنّان ... أسألك عن الشمس التي ما طلعت مذ سافرت ... وعن القافية التي
هَجَرَتْ قصيدتها القديمة مذ حاول الشعر أن يكتب عن سواك ...

أسألك عن القيتارة الخالدة لماذا تشو حزناً .. وعن الألحان الرائعة لماذا إنقلبَتْ
مواويل يأسٍ مذ سافرت ... أسألك عن الأنوثة الرائعة وعن الحنان المتدفق وعن
حسن كل صبايا الجاهليّه ... أسألك عن قيسٍ وليلاه الأصيله ... عن العباس وعن
فوز الجميله .. عن شهریار وعن شهر زاد القتيله ...

أَسْأَلُكَ وَأَنْتَ هُنَاكَ عَنْ حِكَايَاتٍ مَا كُتِبَتْ مِنْ قَبْلِ وَلَكِنهَا تَكْتُبُ الْآنَ مِنْ أَجْلِكَ أَنْتَ ...
وَعَنْ أَشْعَارٍ مَا قِيلَتْ مِنْ قَبْلِ وَلَكِنهَا تُقَالُ الْيَوْمَ فَيْكِ وَعَنْ أَسَاطِيرَ مَا حِيَكْتَ مِنْ قَبْلِ
وَلَكِنهَا تَرَوِي الْيَوْمَ بَعْدَ رَحِيلِكَ ...

مَوْرًا : لَيْلًا أَنَامَ لِأَهْرَبٍ مِنْ ذِكْرِكَ وَلَكِنِّي أَصْحُو عَلَى حَلْمِكَ - يَا حَلْمًا جَاهِلِيًّا
أَعِيشْهُ الْيَوْمَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَلَحْظَةٍ ... أَهْرَبُ مِنْكَ وَمِنْ طَيْفِكَ فَتَاتَيْنِ وَأَحْكَمُ إِغْلَاقَ
نَوَافِذِي وَأَسْدُ أَبْوَابَ غُرْفَتِي وَلَكِنكَ تَتَسَلَّلِينَ إِلَيَّ كَنَسْمَةٍ صَيْفٍ تَدَاعِبُنِي فِي مَضْجَعِي
مِثْلَ الرُّضِيعِ تَهْدِدُهُ أُمُّهُ بَعْدَ طَوْلِ الْغِيَابِ .

مَوْرًا : يَا أَلْفَ إِمْرَأَةٍ عَرَفْتُ وَمَا عَرَفْتُ ... هَا أَنْتَ كُلُّ نِسَاءِ الدُّنْيَا وَكُلِّ جَمِيلَاتِهَا ...
هَآ أَنْتَ إِيزِيسُ فِي بَهَائِهَا وَعَلَيْسَةُ فِي سِيَاسَتِهَا وَخَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَارِ فِي شَجَاعَتِهَا
وَشَدَّتْهَا وَالْجَازِيَّةُ فِي جَمَالِهَا وَلِبَاقَتِهَا وَمَرِيَمُ الصَّنَاعِ فِي حَسَنِ تَدْبِيرِهَا وَحِكْمَتِهَا
وَعَبِلَةُ ابْنَةُ مَالِكٍ فِي وَفَائِهَا وَجِرَّاءُهَا ...

هَآ أَنْتَ أَخِيرًا حَوَاءُ مِنَ النَّشْوَءِ إِلَى النَّشُورِ هَآ أَنْتَ أَلْفُ صُورَةٍ وَصُورُهُ :
مَمْرُوقَةٌ وَمَمْطُورَةٌ وَمَلَطُخَةٌ بِدِمَاعِ الْعِشَاقِ ... هَآ أَنْتَ طَيْفٌ ... هَآ أَنْتَ حَلْمٌ ... هَآ أَنْتَ
قَمَرٌ ... هَآ أَنْتَ مَاضِيٌ يَعْانِقُ فِي الطُّفُولَةِ وَحَاضِرٌ يَحْمِلُنِي إِلَى الْآتِ وَأَتُ يَرْهَبُنِي
فِيهِ اللَّيْلُ وَالسَّهْدُ وَالسَّهَرُ وَتُعَذِّبُنِي فِيهِ الْأَهَامُ ...

لَيْلًا أَسْهَرُ وَحْدِي أَتَأَمَّلُ أَيَّامَكَ يَوْمًا .. يَوْمًا ... أَسْتَعْرِضُ صُورَ صَدِيقَاتِكَ
صُورَةً صُورَةً ..

أَتَأَمَّلُ صُورَهُنَّ فَلَا أَجِدُ فِيهِنَّ سِوَى نَسْخٍ مِنْكَ ... وَلَا فِي وَجُوهِهِنَّ سِوَى
مَلَامَحِكَ أَنْتِ .. وَلَا فِي وَقَفَاتِهِنَّ سِوَى هَيَأْتِكَ أَنْتِ ...

عَمِيقَةُ الْعَيْنَيْنِ : مَاذَا فَعَلْتَ بِي وَمَاذَا فَعَلْتَ بِنَفْسِكَ ؟ لِمَاذَا مِنْ دُونِ الْأَبْوَابِ تَطَرَّقْتَ
إِلَى بَابِي وَلِمَاذَا إِخْتَرْتَنِي مِنْ دُونِ الْأَصْحَابِ ... ؟ وَلِمَاذَا أَخِيرًا شَرَسْتَ وَتَشَرَّسْتَ
بِأَعْصَابِي ... ؟

لِمَاذَا أَرْسَيْتَ مَرَاكِبَكَ لَدَيَّ وَلِمَاذَا سَمَحْتَ لِي بِالْإِبْحَارِ فِي يَمِّ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ وَأَنَا
الَّذِي عِشْتُ طُورَالْ حَيَاتِي أَهَابُ الْبَحْرِ وَأَخْشَاهُ .

لماذا سمحت لي بالإيغال داخل أدغال هواجيسك وأنا الذي أخاف الأدغال حتى
 في قصص رُونْيَارْد كيبليِنغ (Rouayard Kepling) ها أنسي أغرق فيكِ
 ... وأتية فيكِ ... وأضيع داخل أدغال هواجيسك ... ها أنسي صيَّاد يأكله الغابُ
 فتترصده كل وحوش الدنيا ... هذي الأسود الآن تطلب منِّي شجاعتك وهذي
 الغزلان تطلب سواد عينيك ... حتى ذئاب الليل تحتج على وحشية حبك ... حتى
 اليمائم .. حتى الحمام ... حتى العنادل هي الآن تنتظر عودة الألمان من صوتك ...
 بحرية العينين : ماذا فعلت ؟ كان الطقس ربيعياً ... وكان صحواً وكانت
 العصافير تغني أهانيج كأورع ما تكون السنفونيات الخالده ...

كانت الأشجار موزقةً وكان الصفصاف يعتلي عرش شوامِخ الشجر ... والآن
 يحدث الانقلاب ... يفقد الكون صوابه ويأتي عليه الطوفان ... ها نُوح يصنع الفلك
 من جديد ... يهجر ذو القرنين مملكته ويتخلى فرعون عن العرش وعليسه تترك
 قرطاجته وتأتيك وكل ممالك الدنيا تنصبك العرش يا ربَّ العرش .

مؤزاً : ماذا فعلت لي وماذا فعلت بنفسك ... ؟ لماذا رحلت
 وأنت ترحلين ترحل عني الدنيا ... تهجرني الكلمات ... تهرب مني الأشعار ... تفر
 مني معلقات الجاهلية ومرثيات صخر والخنساء وعنتريات بن شداد ولوعات العباس
 بن الأحنف ويكاثيات بن زيون ومخاوف نزار قباني الرائعة :

فمن يدافع عني يا مُسافِرةً	" أخاف أن تمطر الدنيا ولست معي
مثل اليمامة بين العين والبصر	فمذ رحلت وعندي عقدة المطر
وكيف أمحوك من أوراقِي ذاكرتي	كان الشتاء يطفيني بمعطفه
وأنت في القلب مثل النقش في الحجر	فلا أفكر في برد ولا صجر
إني أحبك يا من تسكنين دمي	وكانت الريح تعوي خلف نافذتي
إن كنت في الصين أو كنت في القمر	فتهمسين : " نسك ها هنا شعري
ففيك شيء من المجهول أدخله	والآن أجلس والأمطار تجلديني
وفي شيء من التاريخ والقدر .	على ذراعي ، على وجهي على ظهري

حديث الذاكرة المتعبة

قصة مختار المومني (صفافس)

الوحول تغطي كل شيء .. الملابس .. الطرقات .. الأبنية .. قرأت في كتاب
القرآن أن آدم خلق من صلصال .. الانسان خلق من طين وقرأت في كتب التاريخ
أن الأبنية بدأت من الطوب الأخضر وانتهت إلى الطوب الأحمر .. الأجر .

قال زميلي في الشغل

- إننا نعيش عصر الأجر

أوف .. الذاكرة متعبة .. تخونني أحيانا .. الإرهاق يؤلني .. أحاول أن أتذكر وجهه
حبيبي .. كان وجهها

أشعلت سيجارة .. خطيبيتي في الآونة الأخيرة تجري ورائي بجنون .. أتعبتني إنها
تحاصرني بأشياء خيالية .. وأنا ببال بالورثة .. بدأت أقاوم غثائنا .. قالت خطيبيتي
وقد لاحظت شحوب وجهي .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- « اللي يقعد في الدار يخلص الكراء »

ضحكت بعرف ثم قلت

- « القعاد في الدار ما قعدنا والكراء نخلصو فيه »

أعجبت النكتة خطيبيتي فأغرقت في الضحك .

نظرت في عينيها

نظرت في عيني

قررنا الصمت

* استطراد أول

الوحول .. أكاد أنفجر .. وخطيبيتي تحاصرني بالهاتف .. تسأل عن الحال والأحوال

والقريب والبعيد ، والقديم والجديد وماذا أعددت ليوم زفافنا

قلت لها ذات مرة وقد نرفزنتني

– لقد أعددت خطبة لألقيها عليك ليلة العرس

قالت بسخرية

– لقد شوقنتني .. لم لا تقرأها الآن ؟

كم هي عنيدة إنها تخلق الخصومات .. آه ، متعب أنا ، أما حبيبتي الآن تذكرت صورتها .. وجهها مقطّع كخبزة طرية .. تتمسح بي كقطعة . بدأت أفكار خطبتي تتوارد في ذهني .. الزواج قسمة ونصيب .. شركة فيها الربح والخسارة .. الزواج تفاهم وانسجام .. تألف وإخلاص .. مودة ورحمة .. أوه .. حبيبتي تدمن عشقي .. وأنا أعشق التسكع .. أريد أن أضيع في هذه المدينة الكبيرة كأحلامي .. الفارغة كراسي .. المشوشة كحياتي .. الحاملة كحبيبتي .. المستفزة كخطبتي .. حبيبتي لم تترك لي فرصة الضياع .. تذكرت .. وعدتني أن أكون الرجل العظيم الذي وراء المرأة .. هذا الطموح أراه اليوم يتلاشى ويموت قبلته هي بأنانيتي .

تساءلت .. كم من رجل في العالم يعيش لامرأة واحدة ؟

تذكرت الوحول .. أحيانا تسعفني الذاكرة المتعبة ... هذا أمر غير مهم على أية حال . فالذاكرة لا تدخل في اختيارات التقييم .

الذاكرة أودعها أهل المدينة الآلات الحاسبة .. وآلات الهاتف والفاكس وأجهزة الكمبيوتر وشاشات الرادار .. والذي الشيخ يتمتع بذاكرة جيدة . أحسده على ذلك * استطراد ثان .

بين آلاف الأجساد المتدافعة في هذه المدينة المحمومة أدفع بنفسي ببسطة كمن يمشي وراء جنازة .. تدور في رأسي أحاسيس مبهمه .. كنت أشعر بحبيبتي تخرج من صدري .. تغمر كياني كالموجة العارمة .. العاتبة تكتسحني كالعاصفة المدمرة .. كانت أحاسيسي على كثرتها وتنوعها تنصارع وتتجمع لتكون إحساسا غريبا فسي قراراته انخزال وطموح تذكرت كلاما جميلا قلته لها ذات يوم بعيد .

- شعرك خميلة الريح يا حبيبتي .. وخصرك النحيل أرجوحة القصب .. ضحككت في سري

غاصت رجلاي في الوحول .. انتابني القرف .. أحسست أنه لم يعد هناك سبيل للتخلص من الوحول .. مددت ساقي .. أشعلت آخر سيجارة وألقيت بالعلبة .. أطبقت شفطاي على السيجارة بشدة اندفعت أمتصها بشراهة ووحشية .. كانت روحها المحرقة ترتجف في فمي .. قبل أن أجيء إلى المدينة ساكني والذي

- كيف ينتقل الناس في شوارع المدينة ؟

داريت ابتسامة صفراء وأنا أجييه

- الناس في شوارع المدينة يتخبطون في الوحول .. بعضهم يغوص حتى أن أذنيه وبعضهم حتى ركبتيه وبعضهم يفرق .

علق والدي

- الوحول كالسراط يوم الحساب .. لا بد من الوحول للوصول إلى قلب المدينة ، ولكتي غير مصدق .

لم يصدق أبي .. خرج ليكتشف الأمر بنفسه .. خرج ولم يعد .

* هامش أول :

وحدي بعيني الشاردتين كنت أختصر شوارع المدينة .. نظراتي تسافر في البعيد .. ترحل بين أرجل الناس وأحذيتهم .. على ظهور الرجال وأرداف النساء .. كان الطين يلف كل شيء .. ياكل الأشجار الجميلة والفوانيس المضيئة .. كل شيء كان مزروعا في الطين ..

* هامش ثان :

خرجت لأبحث عن والدي .. سألت حمالا متكوما في « برويطه »

- هل رأيت والدي ؟ هو رجل طيب ويكره الوحول

- ضحك ولم يجب

أكث مرة أخرى

الأقلام الواعدة

إشراف الأستاذ : عبد المجيد زين العابدين

قد يجهد الإنسان نفسه في سبيل الوصول إلى هدف معين له في حياته ، أجل يقبل عليه بكل حزم وعزم ويتكبد المشاق في الانتهاء إليه راضيا به مقتنعا بجدواه بيد أن الأمور لا تسير أحيانا وفق مشيئتنا وحسب أهواننا وميولاتنا ، لكنها تأخذ مساراً مغايراً تماماً للمسار الذي أعدنا العدة وحزمننا أمرنا لتجسيده ويلورته في يوم من الأيام .

هكذا نجد أنفسنا منساقين إلى هدف غير الذي رسمناه أو فكرنا في إقامة علاقة به أو تصورنا يوماً إمكان التقلّم معه ، فإذا أنقشنا ملزمة بقبوله وإذا أنقشنا مضطرة إلى معاشته والانسجام معه كيفما كانت الحالة ، وليس بهم الأقدار أن نكون عنه راضين وعليه مقبلين أم نكون له كارهين وعنه جافلين . أجل لا يهمها من ذلك شيء . كل ما يهمنا أن تختار هي لنا ونقبل نحن وأن يكون رضانا مقترنا برضاها ليس إلا . ولهذا فلا مناص من قبول ما تسوقه إلينا من اختيارات ومصائر وقدرات ومواهب - قد يعتبرها البعض غلبة إلا أن المتأمل الرّصين يرى فيها الحكمة والرشاد إذا تقطن إلى أهميتها في تحديد أنوارنا ومسؤولياتنا وإشعارنا بها وتوجيهنا إليها .

قد يختار علي له الأدب هواية ويروم التعمق فيه ، بيد أن الواقع يثبت أن قدراته العلمية أفضل من قدراته الأدبية فليس يفغده في شيء حماسه للأولى بقدر ما يستفيد من نقل عنايته إلى الثانية . وقل مثل ذلك في صالح إذا ما اختار الشعر

هوايته المفضلة ، بينما قدراته الحقيقية تكمن في القصة أو الأقصوصة ، فانت تراه يمارس الأولى مراساً يداعب خياله ، إنّه مراس القادرين عليها الموهوبين فيها إلا أنّ ذلك لا يتعدى وهماً ومحض خيال . ولو أنّه غير وجهته إلى ميدان القصص لانتضحت موهبته وتجلت مكان قدراته - إذن كل الصعوبة هنا تكمن في إقلاعهما عن الأولى واندماجهما في الثانية . فإذا اجتازا هذه المرحلة الصعبة خوفاً بذلك الظهور والبروز للامح شخصيتهما المستقبلية أمّا ، إذا اكتفيا باختيارهما الأوّل ولم يبادرا إلى الاختيار الذي أثبتت التجربة قيمته ونجاعته ، فكانما حكما على قدراتهما بالجمود وعلى شخصيتهما بالفتور والاختفاء .

* إلى الطالبة مريم سباهي أصيلة حاجب العيون .

أيتها الأنسة مريم ، لقد احتضنت الإتحاف بعض محاولتك الأدبية في السنة المنصرمة مترقبة أن تأتيها بجديدك خاصة وأنّ لفك نقيّة سليمة ومعبرة قد تخفي لك من ورائها مستقبل قصصياً أو وراثياً مشرقاً يشيك عالم الحيرة الذي يحتويه كما يحتوي الشباب عادة في مثل هذه المرحلة الربيعية من عمرك فيحول دون رؤية واضحة لمصيرهم .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كنت بعثت إلينا برسالة عنوانها : « حزن في قلبي » فيها تكشفين النقاب عن علاقتك الأولى " بالإتحاف " ولا أخفي أنّها صادفت منّي رضا وتجاوباً لما أنست فيها من سلاسل لغوية وتسلسل في المعاني ودقّة في الوصف وترجمة ذاتية صادقة لمعاناة شخصية صامتة ، إلا أنّني ترددت كثيراً في إدراجها مع ذلك في هذا الركن بدءاً ، خوفاً من التشجيع على أعمال ذاتية لم تتعود سمو مكانتها إلا لدى كبار الأدباء والمفكرين .

وإنّي بهذه المناسبة أشجعك على تسجيل كل ما هو ذاتي نابع من إحساسك وتصوّراتك ومحيطك ولا شك أنّك ستفعلن فيه كما أنشر لك الجزء الأوفر من رسالتك : « حزن في قلبي » في هذا العدد .

— حزن في قلبي —

كنت مارة لا ألوي على شيء ... ومن عادتي أن أفكر في لب الأشياء قد تصادفني صخرة في الطريق ، فتستوقفني إنها تستقر صمتي ، تستوقفني بعض الأشواك الغضبية السابحة في ضياء الشمس ، تحاكي سيولها الذهبية في حوار عميق ، قد يرتقي عن لغة الكلام ... قد يستوقفني طفل باك ما تزال آثار الدموع مرتسمة على وجنتيه اللامعتين ببريق الحيرة : « لماذا ضربته أمه ؟ » ربما ألح في طلب قطعة حلوى أو قطعة سكر ... وهي المنغمسة دائما في أعمال روتينية أو في حوار شيق مع جارتها التي تسرد لها أحداث ليلة عرس في الناحية الأخرى من الريف ... وأم الطفل تتحسر ، لو حضرت لاستمتعت بوقتها كما ينبغي ، فعادة ما تكثر الطرائف في مثل هذه المناسبات .

قد تستوقفني عجوز جالسة بجانب جدار خلفي تستظل بظله وفي تأن ترقب الصبايا اللواتي يجبن الشارع وضحكاتهن تتردأ فيحدث صداها رنينا خاصا ربما لا يفهم أبعاده أحد بالقدر الذي يبدو في أعماق تلك العجوز ... فتراها حيناً ترفع حاجبيها وأحيانا أخرى تعقد هما بشكل واضح فتفهم أن هناك شيئا فر من ذاكرتها وهي تجهد نفسها لتلتقط رأس الخيط كما يقال ... كنت مغمورة بضجة الحياة في الريف وهو الذي عهدته هادئا ... فاستوقفني صوت رنان : « قرأت لك قصيدة في مجلة الإتحاف »

« قصيدة ؟؟ » هكذا رددت بكل عفوية واستغراب ...

- « نعم قصيدة بعنوان " ضياع " »

- لكنني لم أكتب أبداً لمجلة الإتحاف رغم أن أخي مفرم بها ودائما يحدثني عنها .

- « على كل بعد عشرة أيام سأحمل لك العدد الذي يحوي قصيدتك . »

- « حسنا تفعل ، لأنك كما تعلم لا يأتي إلى حاجب العيون إلا عدد واحد إلى دار

الثقافة ، وربما لا يتيسر لي الاطلاع عليه ... »

كان ذلك حواراً خاطفا مع أحد أقربائي الشغوفين بالأدب ومراسمه وبالثقافة وديرياتها ... عدت إلى البيت ، ربما يخامرني شعور بالغبطة أو ربما هو تشوف

واشتياق لإعادة الإبحار في كلمات كتبتها منذ مدة طويلة وأسكنتها ذلك الكرّاس القديم .. حيث تتناثر أشلائي وحيث تتجدّد فصول تعبي أصلي للكلمة حينما تكون وردة ناصعة البياض تمسح عن جبين قلوبنا غبار المشوار وما أثقل المشوار !

* م - س * أصيلة حاجب العيون
* إلى الشاب رضا العبّاسي أصيل حاجب العيون .
لقد عهدت فيك " الإتحاف " صديقاً ملازماً لها بمساهماتك الشعرية الرقيقة والتي تفيض نبلا وأريحية ووطنية ، إلا أنك انقطعت أو تكاد عن مدّها بجديدك ، فعمسى أن تكون في مرحلة تأملية معطاة ينجم عنها إنتاج ينم عن تقدّم وتطوّر في الرؤية والمنهاج . أنشر لك ثلاثة مقاطع في هذا الحيز من باقتك بعنوان : « من تصريحات فدائي »

من تصريحات فدائي



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

فتن

حين دعوت

لمحو الوطن

طعنوني غدرا

حب الوطن

أحبّ هذا الوطن

أحبّ فيه حتّى الشجن

أحبّه في السّر

وفي العلن

لهب ... غضب

يا أيّها الفزة

بنادقكم من قصب

حذار !

إنّني بركان من لهب ؟!

وصرصر من غضب ! ؟ * ر - ع * أسيل حاجب العيون

* إلى المرّي خالد الأحمر من بوعرادة .

تلقت الإتحاف مراسلتك الأدبية الموهورة بعنوان " الرّحيل " ولئن افتقدت خصوصيّتها الإيقاعية فإنّها تحمل في طيّاتها عواطف رقيقة جيّاشة أنشرها لك أملا أن تكون أعمالك " الشعريّة " القادمة تتخللها نغمة تزيدها بهاءً وقرباً من النفس والوجدان .

- الرّحيل -

بكلّ ما نملك

من حكايات حب

رحلت

بكلّ ما نملك

من أساطير لهب

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

رحلت حبيبتي

رحلت . اسألوا العشاق عنّي

عن حياتي وعن نعش ذكرياتي

رحلت حبيبتي

ولنّ أحبّ غيرك

لنّ أستجدى الحب من دون شفتيك

لنّ أرى الحب من خارج عينيك

رحلت حبيبتي

وتركتني في مجرى الأشواق

وكنت فيه السيل الدّفاق

رحلت حبيبتي

وتركتني لعذابني وأشجاني
 فحتى الحزن رثى لأحزاني
 وحتى الشمس حبيبتي
 الشمس تشرق بالظلام
 فتاهت الأمانى في الأحلام
 وضاع الحب

وضاع المنام * خ - ١ * معلم - بوعزادة

* إلى المثقف صلاح داود أصيل دار شعبان الفهري .

تلقت الإتحاف محاولتك الشعرية : « تونس بين الحلو والمر » التي اخترت لها
 المتقارب بحرا والتزمت فيها بتغيير القافية في البيت الثالث من كل مقطع ، هذه
 المحاولة جادة تتم عن اجتهاد واجتهاد للنفس ذلك أن القافية لا تطاوعك دائما وهذا
 ما يجعلك في أكثر من موطن تهمل الجانب المعنوي أو اللغوي في سبيل استدعاء
 تصريح في كل طالع مقطع أو في البيت الثالث منه أو استحضار قافية في عجز
 البيت الثاني . بيد أنه بالرغم من غلبة نزعتك إلى الوزن والشكل وطغيانهما على
 المضامين أحيانا ، فإنك إذا أقبلت حسن إقبال على الشعر القديم الجيد متعهدا بإياه
 تارة بالقراءة وأخرى بالحفظ ، فلا شك أن الحس الموسيقي سيتوفر عليك بصورة
 واضحة جلية ، وإن تقول الشعر الذي تتمنى قوله ولما نقله .

أنشر لك القصيد المشار إليه آنفا منقحا .

— تونس بين الحلو والمر —

جسور بلادي عبور ونام — تزيد بلادي عميق التحام
 فمن هندس الجسر أعلى المقام — إليه احترامي وعمق السلام
 فؤادي بلادي بماء حفل
 وبالجسر غنى نشيد الأمل

* * * * *

سلام سلام لروح الطبيب - يبيع النعاس ليفنسي الكروب
يزيل من الجسم داءً غريب - فينزاح عنه تقيل الخطوب

طبيب بلادي رسول الرسل

إذا أخلص الحب لاقى القبل

* * * * *

نروم مكاتب ملأى ضعائر - طوال الثواني تشد الدفاتر
وتأسى لباك إليها اشتكى - وتستقبل الناس من كل زائر

فما عاش شعب يهاب العمل

وهذي الضعائر مفتاح حل

* * * * *

نريد مديراً يعوم شائد - يصول يجول كمليون قائد
يكرى فير على ألف جبهة - ويحظى بنصر على كل وارد

فيرتج في الأرض قلب الخلل

ويسري إلى النشء حب العمل

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

على قدر صدقي يفيض لسانى - بما في الضمير تسيل المعانى
فيرشفه الشعر حباً صراحاً - بما يفتن الروح حلو اقتنائ

فما الوطنى حجب العلل

* * * * * ولكنها الحرب ضد الخلل * * * * *

* إلى الطالبة دلندة الهداوي (كلية طب الأسنان بالمنستير)

نشرت لك في عدد سابق إحدى مساهماتك الأدبية التي ولتني خلت من الإيقاعية
المنشودة في ميدان الشعر ، فإنها لم تخل من دلالات ومضامين قيمة - أنصحك
بقراءة الشعر قديمه وحديثه ، راسلينا عل مراسلاتك الآتية تكشف عن مواطن تطور
أدرج لك في هذا العدد ما عنوانه :

« صراع الزّمن »

- صراع الزّمن -

سفينة البحر بالليل تنشدني

نجوم السّماء ترصدني

تناجيني، تعاتبني

- هبّي مع نسيم الليل

كوني لؤلؤة، كوني صيادا

علّ الصيّد يرشدك

ومجداف السفينة يحرسك .

ولؤلؤ الليل، يسعدك

النور والظلمة والكل يرى بهجرتي

- ليضمّني نور الصّباح

وسفينتي تبعدني

عن النّجوم، عن الليل

ويختفي ضوؤه اللؤلؤ

ويسود النهار

وتباه الصياد في الأفق

ما بين السحاب والبحر

وألقى باللؤلؤ

ويسطّ الأمل على الأمواج

مناديا الليل

أكون صيادا ، أصارع الأمواج

علّ الليل يقدم

ونجومه توجدني

* وإلى اللقاء في عدد قادم .